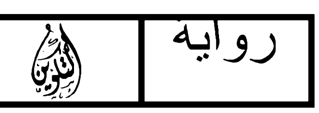
محمد الحاج صالح

صخرة الخلقين



رواية
صخرة الخلقين
محمد الحاج صالح

صخرة الخَلْقِين



د. محمد الحاج صالح

صخرة الخَلْقِين

رواية

لوحة الغلاف للمؤلف



للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ص . ب 80344
دمشق - هاتف 2236468
taakwen@yahoo.com

د. محمد الحاج صالح

صخرة الخَلْقِين

روايـة



لوحات الازمنه

الزمن الأول:

ضوء الصباح يغمر المدى، الجو صحوٌ ، والسماء عميقة الزرقة، وهو يجلس على كرسيه، الكرسي أعلى الجبل. امتدت يده إلى عمق البحر ، قطع صخرة طولها لقامة رجل عملاق أسماها الخلقِين.

أمعن النظر في صفحة الماء الرائق، رأى شكلاً يشابهه، رفع قبضة من تراب ورمل وكلس ، مزجها بماء البحر، ثم صنع شكلاً كما الصورة التي رآها في الماء، نفخ فيه فيضاً من نوره فاستفاق. همس في أذنه كلمات، رفعه ثم عمده بماء البح ر، هزّه بين يديه، اصطخب البحر، علت أمواجه . بكاء الم خلوق الجديد يتصاعدُ مع هدير الأمواج، قذفه في الماء، وتركه يتعلم السباحة والحياة.

صعد إلى كرسيه مزهواً بما صنع، كرسيه إجاصة مقطوعة الرأس، ترقد على جبل الكرسي، حجر منحوت من صخر أبعاده تعادل قامَتْي رجل عملاق، ترتفع منحنية من مستقرها نحو الأعلى، أعلاها مستوٍ له إكليل يعانقها بحنان.

هنا يطيب لبعلٍ الجلوس وإلى جانبه عناة، يراقبان الممالك البحرية والشعوب الفينيقية، وغياب الشمس والسماء الأرجوانية.

على هذا الكرسي الحجري وهو يستغرق متأملاً عناة تراءت له صنيعته في الصباح، نسائم توشوش، ينسج على صورة عناة امرأة كللها بالضياء،

مذهولة تراقب بعلاً منهمكاً بتكوين أنثى، وجه يستدير على قرص القمر، نهدان يخفقان، رياح تؤجج نيرانها، تلتهب غيرتها تصفعُه بجناحيها، أعجوبة ليست كبيرة على إلاهة، لكنّه بعلها أخوها وزوجها! والمرأة مشاعر، تصعدت لهفتها. الشمس تميل إلى الغروب والقبة السماوية مضرجة بالحمرة ، والأرجوان يمتزج بالزرقة، مهرجان ألوان تتباهى به السماء.

عناة تتأمل البحر ب حَيرةٍ، قلقٌ ينتابها، صمت يخفي تحته مراجل مستعرة، بعل يبتسم في سره، فالمرأة امرأة حتى وإن كانت الآلهة، الغيرة تلتهم وجهها، عيناها تلتهبان حمرة. عاصفة من نار تكاد تثور. بعل يرسل في طلب رجل البحر.

حضور الرجل أدخل الطمأنينة إلى قلبها، ابتسمت عناة وهدأت أمواج الشاطىء، بعلها يقدم هبته الأولى إلى رجله الأول ليبتدىء قصة لم تنته على مر الأيام.

من أعلى حجر الكرسي رسم الممالك الأروادية ، منح الجبل اسم كرسيه القدسي، تربَّع عليه مع عشتاره منذ ما ينوف عن الأربعة آلاف عام ، يغيب عنه ستة أشهر في أعماق الهاوية، يرتاح على كرسيه قبل الصعود إلى غيومه، يسيرها في أواخر الخريف وطوال الشتاء، في الربيع يجلس على كرسيه من جديد مراقباً تفتح أزهار الأقحوان، بعدها سيعاود معركته مع موت في دورة الصراع الأبدي إلى أن تأتي الغيوم من جديد مصطبغة بلون الدم وزهور شقائق النعمان،أتى ذات يوم رجل يضع على كتفيه نجوماً براقة أعجبه موقع الحجر، فاقتلعه ووضع مكانه مدفعاً مضاداً للطائرات.

يومها أخذ الناس يهزون رؤوسهم عند عبورهم سفح الجبل، وبعد ذلك لم يعد أحدٌ يذكر الحجر سوى العجائز، والجبل أخذ يضيع وكاد أن يتحول إلى سهل.

بعلٌ في تجواله المعتاد ، كاد يفقد جبل كرسيه بعد أن تبدلت ملامحه، وعندما تبدت له الحقيقة بقي الشك يساوره، وهو لا يصدق ما حلّ بقدس الأقداس؟

وقبل أن يغادر المكان أرسل برازه القدسي ، ففقدت النجوم بريقها وأعتم المكان، وأصيب الذي أمر بنقل الحجر بمرض عضال ، كما أصيب بالنكبات كل الذين شاركوا في تلك المعصية الكبرى.

غيمه زرقاء

وكان الجو صحواً والسماء عميقة الزرقة ، فسحة سماوية وطست يغسلون فيه وليداً، علامات الترقب والقلق ترسم وجوههم، يرفعونه من قدميه في الهواء، يضربونه على قفاه، غيمة زرقاء ترصد المشهد، آلمها ضرب الوليد ولهفة المترقبين، هبطت عليه تظلله وتحميه، تغلغلت في أعماقه، أحست بالاختناق، صرخت فلنفتح صدر الوليد و انطلقت حنجرته بالبكاء.

فاضت العيون بالدموع ، انطلقت الزغاريد نحو السماء، أما الغيمة الزرقاء فقد بقيت محتبسة تتململ، تولول احتجاجاً على سجن وَلَجَتْه بغتة، بعد برهة همدت مغتمةً، وأدركت أنها باقية في أعماق هذا الوليد إلى أن يتعلم الصمت من جديد.

الغيمة يعتريها صمت عميق، تتحد في جسد الطفل، تتماهى في خلاياه، تفقد نورها الأزرق. رعب من اللحظة، بؤسٌ يعتريها.

تضج من أعماقها. يتصعد ضجيجها بكاءً ممتزجاً بصوت الوليد ، يرتعش الجسد، تلتصق به كطحالب مرغمة، تتضرع إلى المقدس كي يحررها، ترتد صلاتها خائبة.

الأحزمة تلتف حول جسد الوليد، سجن الجسد وأطواق اللفائف، ذهول وصمت وارتجاف.

تتساءل أهذا جزاء الإحسان؟

تحاول الانفلات من السجن البشري؛ لكن هيهات، كلما حاولت التخلص ازداد تمددها والتصاقها، صوت يصلها أن تكف عن المحاولة . أصوات تنادي الغيمة:

أمه منحته الجسد، وأنت تهبينه الحياة . الغيمة تُلبس عريها جسد الطفل، الأحلام تغزوها، تفقد ذاكرتها، أحلام تحملها فوق غابات ومنازل بعيدة، ومع مضي السنين، تلتصق ذاكرتها بذاكرة الوليد وكأنها لم تكن ذات يوم غيمة زرقاء تسبح وحيدة في الفضاءات البعيدة.

ومع نمو الطفل وعبوره مراحل أبعد في عمره، تستعيد نتفاً من الذاكرة، تحادث الطفل والمراهق والشاب من داخله، يستمع إليها تحاوره، واعتاد الطفل دعوتها بصوته الداخلي، يجري حوارات معها، يتحدث بصوتين موقناً أنَّها تسكنه، يصغي إليه ا و تجيبه، وأمام الدروب الوعرة، عندما تتصعد الزفرات من أعماقه، يستمع إليها تحفزه، تقوي عزيمته وتُطلقه بعيداً في متاهة الحياة.

في خلواته تكثر شكاواه، ويقول لنفسه هنا تسود شريعة قاسية يصعب تحملها، فتهش له باشة تمنحه الأمل وتعده بالأمان، وعندما بلغ سن المراهقة والرشد ازدادت حواراتهما ، وصار يشعر بأن حواره لم يعد حواراً ذاتياً، بل مع جرمٍ منفصلٍ عنه، يحتل حيزاً هاماً من مساحات العقل والجسد.

الزمن الثـانـي

رئيس البلديـة

ثلاثون عاما بعيداً عن الساحة، الوجوه تغيرت، والأماكن أخذت بالتبدل؛ سور المدينة مازال كما عهده؛ ماعدا الجدار الغربي الذي امتدت إليه يد الخراب، رئيس البلدية أطلق مشروعاً أسماه الانفتاح نحو العالم، أرسل بلدوزراً لهدم السور، لفتح طريقٍ نحو الخارج، مسقطاً ببساطة جزءاً من سور المدينة، ومن التاريخ عمره ألف عام، وهو يقول مبرراً متباهياً:

الآن إذا حدث حريق في الساحة ستتمكن الإطفائية من الدخول لإخماده!

ليلة الهدم لم ينم رئيس البلدية ولم تنم المدينة، إحساس عميم بالتجرؤ على المقدس، في السر يقول رئيس البلدية: إنها الأوامر ولايمكنني الإفصاح عنها، وفي العلن يقول: إنها منحة للساكنين أن تتصل الساحة المغلقة بالعالم الخارجي من ناحية، ولدرء الحرائق عن المدينة القديمة من ناحية أخرى.

في الأيام التالية بدا رئيس البلدية مغتماً، تحدث مع مفتي المدينة، وصار لايبارح المسجد، كثرت مراجعاته للطبيب، شحوب يعلو وجهه، يمضي واجماً عيناه تسبحان في البعيد ، لايتحدث إلى الناس، سرت الشائعات عن مرض ألّم به.

في اليوم الأخير لمشروع الهدم والانفتاح؛ وقف محزوناً، يراقب فعلته وآخر الأعمال، حجرٌ طائش يندفع إلى عينه اليسرى، أغمي على إثره، ثم أسعف إلى المشفى الصغير والوحيد في المدينة ،كوابيس الليل تهاجمه، صراخٌ يعلو، استغفار واستنكار وصوت رعب:

.. لا...لا.. تتلى لاآته بأنات موجعة وآهات تند عنه.

بداية لم يتحدث في صحوه للآخرين عن أحلامه الموجعة؛ لكنَّ الهذيان اشتد عليه، وصار يتحدث عن أشخاص في الخفاء، يأتونه ليلاً للتعذيب، ملثمين، شرر يتصاعد من عيونهم، يصف الحبل والسياط والكي بالحديد والنار. وطائر يقتلع عينه السليمة وذباب ينغل في عينه الجريحة، يتكرر المشهد كل يوم، الممرضون يحاولون إيقاظه فلا يستجيب، إلى أن يهل الصباح.

في النهار ازداد توتره و صار يخاف الناس، انتقلت كوابيس الليل إلىاليقظة، أشخاص يعلن عن حضورهم لا يراهم أحد سواه، يختبئ رعباً منهم، يصرخ: انتبهوا انتبهوا خبئوني.

يخفي رأسه ويتلوى بجسده متفادياً سياطاً خفيةً؛ يخالها تنهال عليه. عينه الجريحة تستغيث والأخرى ترحل في التيه

آن تنطفىء الشمس يجتاحه رعب الظلام

حلم متكرر يغزو نومه يقصه على الطبيب:

رأى نفسه موفداً إلى مكان قصي وأمامه أطروحة : مشروع في هندسة العمارة، اختار الساحة القديمة موضوع مشروعه، شمل المشروع المدينة القديمة المتخيلة بعد إكمالها، وأرفقه بصور فوتوغرافية كما تبدو اليوم، قال له البرفسور المشرف:

ماهذا ياعمار!؟.

قال: كما ترى طريق فتحته في السور احترازاً من حرائق قد تقع.

ضرب البرفسور بيده على رأسه ، شتمه وشتم التاريخ الذي جعله وصياً عليه، يفعل به مايشاء، انهال ضرباً على الحائط بيديه، ثم انقلب إلي ه وقال:

- أنت رجل تستحق قطع اليدين. لا...لا.. بل تستحق شيئاً أكثر ، كيف تتجرأ على هذا الفعل؟ كيف تتجرأ على التاريخ!

خذوه. أعيدوا بناء المدينة القديمة كما كانت فهي الأجمل في الشرق

يأتي رجال من الخفاء ليقتادوه، عم القة ملثمون يحملون سياطاً، يسوطونه، ثم يكوى بالنار. يفتحون بطنه تندفع أحشاؤه يحملها بيديه ويتعالى صراخه.

- إنهم هنا، أنقذوني أرجوكم.

المرض تشتد وطأته، بثور تندفع على وجنتيه، تزداد ارتفاعاً يوماً بعد يوم. سوائل نتنةٌ تسيل منها، حالةٌ مشوهة تحيل الوجه البشري الأليف إلى شكل مقيت. أعيت حالته أطباء المدينة الصغيرة صار يلبس قناع الموت ، استسلم للرعب فأرسل إلى مشفى العاصمة، وهناك بقيت نتف من أخباره تصل متناثرة إلى المدينة.

الزمن الثالث

الأيدي القذرة

زمن الصديد والحروف الميتة والدمار، عينان تسقطان في الهاوية أحلام مطفأة، بأي الكلمات ينطق ومن حوله الطواويس تعتلي عروش الخراب.

أطلال مدينة موشوشة بالنسيان، أصداء تحفظها حجارة صماء.

المرفأ الحديث يقتلعُ المرفأ الروماني القديم ويبتلعه، حجر الكرسي الذي تربع بشموخ فوق الجبل آلاف السنوات أزيل، بعد أن كان مركز عبادة قريباً لأهل القرنين وتوروزا وأرواد. ردم البحر غرب توروزا ، واحتل الكورنيش مكانه، سؤال يتردد كإزميل يحفر رأسه أمام تاريخ يغرق في الوحول : من المسؤول؟

أطلال المدينة القديمة ، تتصاعد أمامه صورها المشوهة، أيام الطفولة تنبعث من جديد ؛ يحمدُ الله أن القلعة ما تزال في مكانها والبرج والخندق والدنجون – الحصن المنيع – مدينة شيدت بحجارة كبيرة، ثم سورت بسورين يتوسطهما خندق مائي يتصل ب البحر، ورغم جفاف الخندق فه و مازال محتفراً، شعر بالامتنان لرئيس البلدية الذي لم يردمه أويهدمه؛ كما فعل مع السور البحري، حيث وضع رصيفاً في البحر.

مدينة الأسوار السبعة تكاد تفقد شكلها، حتى صخرة الخلقين اختفت! ترى ما مصيرها؟ أتراها اقتلعت أم ردمت، أم غرقت. شعر أن أجزاءً من جسده تستأصل، وهو يبحر في أزمنة المدينة التي عبثت بها الأيدي القذرة.

ثلاثون سنة انقضت والآن يتوقف في محاولة لاستعادة ذاكرة الطفولة، عيناه تتجولان في الأمكنة، عمود الأونيكس، القلعة، البرج، الكنيسة، البناء الرئيسي، الدنجون «الحصن المنيع» عينان جامدتان، الحيرة تجتاحه، يعدو بالسنين نحو الوراء يقرأ تاريخاً بربرياً يرسم أزمنة التيه والخراب.

سلام عليك أيتها المدينة المختبئة في الذاكرة

زمن الطفولة

الصور تنقلب في طريق عودته إلى الطفولة، تنبثق من الأمكنة، يعيد تشكيلها وهو يلعب مع رفاق طفولته : عبدالرزاق أخيه، وممدوح ابنِ عمه وسمير رفاعية ربيعه، والمور بشير الأكثر مهارة في رمي الدحل، عبدِ الواحد الأحولِ وأحمد الحبقة، رفيق ا ا لخوجاية والطفولة الأولى. واسكندر الشقي المليئ بالحيوية كثير الكلام ؛ راكبِ الدراجة الماهر صاحبِ المقالب، رفيقِ المدرسة الذي يلمس كل شيء ويتدخل في كل شيء، وإذا ما عبر بين رفاقه فهو سيضرب أحدهم على رقبته، ويشد شعر الآخر راكلاً الثالث ومجفلاً الرابع، يضحك هارباً مقلداً حركاتهم وأصواتهم، هازئاً بالمعلمين والمعلمات، مقلداً كركوز وعواظ والمدلل، متابعاً مغني البلدة أحمد هزا.

أولاد يلعبون الكرة وآخرون العصا والدقس، وغيرهم السيوف اثنان يتلاكمان وآخران يتصارعان وبعضهم يرفع الأثقال. حياة يومية تدور وكأنَّ العالم كله تحول إلى هذه المدينة، يطوقها البحر والزيتون، خندق وقباب، كنيسة بقي منها أقواس متعانقة وزخارف، تعلو شامخة تطاول السماء، ورغم انهيار أجزاء من جدرانها العليا فقد صمدت أقواسها تتحدى الفناء، مسجد يتصاعد منه صوت الآذان، حمام وقميم. نسوة في الحمام صباحاً،

ورجال في المساء. سيارين الحمام، تصطحب النسوة الأطفال قبل البلوغ، ثم بغتهـ يبدأ التحريم:

– يأم وضّاح ابنك قارب سن البلوغ ، الشعر ينمو على خده، حرامٌ أن يأتي إلى الحمام في دور النساء بعد اليوم.

مدرسة ابتدائية للصغار، لعب وشقاوة وذكريات لمدينة لم يبق منها اليوم سوى الأسوار، نمط الحياة القديمة التي بقيت ما يزيد عن الألف عام اختفت، واختفت معه ا تقاليد عريقة بكل ماتحمله؛ حتى الذكريات بدأت بالتلاشي.

قال لنفسه: الأمكنة لاتحتفظ بالذاكرة رغم توهمنا بذاكرة المكان، يسير مذهولاً وهو يرى حمى التغيير، البشر أتوا عاشوا صنعوا تاريخهم حملوا ذاكرتهم ورحلوا.

مع عبوره في الأمكنة؛ محاولاً استعادة الذاكرة، يعترف أنّ الأمر عابر، فبعد ذهابه ستقفل الذاكرة. وبعد مدة قد لاتطول كثيراً سي غفو التاريخ في هذه المدينة من جديد؛ إلى أن يأتي أحد ما ربما من مكان آخر أو من زمان آخر؛ يبدأ بتقليب صفحات المدينة وهو يذكر عصراً مزدهراً انقضى، ويرى المدينة وقد أخذت بالتلاشي. يقرأ على مواقعها بعض القصص والحكايات التي اختزنت في الذاكرة الغربية؛ لبحاثة من فرنسا أو ألمانيا والذين يعرفون عنا وعن تاريخنا أكثر مما نعرف عن أنفسنا وعن بلادنا، وسوف يرحل هو الآخر مغلقاً بوابة أخرى للمدينة.

سيل الذكريات يتداعى وهو يعود إلى الوراء: الوجوه كبرت، يبادره معظمهم بالسلام الحار بعد أن يتفرسوا في ملامحه. أحدهم يقترب مسلماً بحرارة. كمن يستيقظ من حلم يقول: خالد!

– نعم خالد أما زلت تذكر؟ ها أنت تعود ياوضّاح إلى الساحة لقد تبدلت كثيراً... الله على أيام زمان.

الوجوه باشة في وجهه ، بعض من رفاق الطفولة يقتربون يسلمون بود وعناق...

يتركهم بعد السلام ثم يتابع دورته وحيداً، يصعد الدرج إلى القلعة ، ويحمل معه ذاكرة طفولة يحاول نبشها. صور متزاحمة ينفض عنها الغبار، يتأمل الحجارة والأقواس والدرج ، يشم رائحة النرجيلة ورائحة أمه تعبق في المكان.

النسوة بعد شطف الزقاق صباحاً يتزينَّ بالحمرة الفاقعة والبودرة الكثيفة، يجلسن في الزقاق الضيق مع نرجيلهن، بعضهن يتشكلن بالزنبق والمضعف، وحول أعناقهن عقود الفل والياسمين، هنا تبدأ الفتاة بتعلم الطبخ والغسيل و نهل النرجيلة في سن مبكرة على تخوم البلوغ، عما قريب ستتزوج، وعليها أن تتقن كافة الدروس.

يعبر أزقة الطفولة، يتوقف عند بعض الأمكنة التي تخبئ بعض الحكايا، يراقب الجدران والدرج والأقواس والتيجان، ثم يتجه إلى خندق أبو عرفات مستذكراً ألعاب العيد، «الشقليبة والزنزوقة» ينسحب القلب معها وهي تطير في الهواء. الخفافيش تطير في فناء الخندق، تبعث رعباً خفياً بينما تقترب من السقف، مهرجان فرح مع ألعاب العيد، مسدسات الفلين ومسدسات الماء، أفلام عربية وأجنبية في السينما الوحيدة التي تعرض أفلاماً صامتة بالأسود والأبيض، يعبر أمام المكان الذي خصص فيما مضى لعروض الكريكيزة، ثم يتوجه إلى البحر، وأمام صخرة الخلقين يباغت باختفائها.
يتبعه خالد ليقول تبدلت الساحة كثيراً ياوضّاح؛ الكبار ماتوا رحمهم الله.

السيف والترس والحاج منير المغربي و عمك سلمان المعمارى ألا تذكر الكريكيزة؟

أين صخرة الخلقين؟. يسأل وضاح:

وكيف اختفت؟

علتها صخور الرصيف كما ترى ألا تذكر أيام الخلقين؟.

أحسَّ بضلوعه تتكسر فالأشياء في أعماقه تحمل أكثر من معانيها والخلقين. ياالله إنهم يعبثون بكل شيء، كاد يقول لخالد:

وآدم الذي خلق هنا على الصخرة آدمنا ماذا فعلوا به؟.

الخلقين وحجر الكرسي ويد تمتد إلى أعماق القدسية، سكين تُغرز في القلب، ويد تعبث بالتاريخ تخرب المقدس . جرح نازف يُلون صفحة البحر، يسمع صوت صخرة الخلقين المدفونة في أعماق البحر، جرح الخلقين ينزف تختنق الكلمات، «هنا بادت مدينتي، وهنا كان وطني »، يكاد يفقد توازنه.

الرحلة إلى الطفولة غدت مؤلمة، قرأ بقايا من الصفحات العتيقة، مدينة تبدلت روحها وأخذت بالتلاشي، حاول استرجاع بعض ملامحها من ذاكرته، مدينة تحولت إلى قرية كبيرة صارت تنام بعد الغروب ، نسيت ذاتها وفقدت هويتها كبلدة صغيرة، طفولة بعيدة من الصعب أن تستعاد وتستعاد معها ذاكرة المدينة.

شخصيات كثيرة رحلت ماتت هرمت، فيما مضى نسجت بينها علاقات حميمة. بعضها مميز وبعضها مسطح، نسوة لهن طقوس غريبة:

زيارات واستقبال وحمام سوق، وحكايات سمر ، رجال: عمال وصيادو أسماك ودراويش. أبو وفيق الفيلسوف وكأنه خرج من كتاب الجاحظ . ومعه

أخوه أبو عدنان وابنه الحسين. وأبو السيد البحشة (أبو جحشة)، والمبلي وخِرِ طَقْ ، وأحمد هزا المطرب الشعبي المحبوب ، عمه، والحاج الإس وفومنشو ويرهوم الطعمي، رجال دين مستهابون وأولاد يكبرون في جو مغلق. ولاتكتمل المدينة إلا بوجود المبروكين والمجانين حمادة ورفيق طفولته الاسكندر والبكري وصبحي وراشد.

شخصيات عبرت المدينة حملت معها نهاية لتراث شعبي وفولكلور اندثر أو كاد؛ لكنه مايزال يعشش في أعماقه يؤرقه غيابه. المدينة تفقد إحساسها وهويتها وهي تُنتهك ، يفتح سورها ويرحل ناسها، تكبر عشوائياً ، تفقد خصوصيتها. هؤلاء الناس الذين رسموا المدينة أخذو ا بالرحيل. بعضهم خارج الساحة كما حدث لعائلته، والكثير ون منهم خارج المدينة إلى العاصمة، أو إلى مدن أخرى يتبعون طرق كسب عيشهم. وهو يعود بعد ثلاثين عاماً وكأنه خرج بالأمس، يالله ثلاثون عاماً مضت!

يحدثه خالد فيغيب عنه ثم يصحو: نعم ياخالد.

يقول خالد: سأتركك لشرودك وذكرياتك؛ أنا هنا في المقهى إذا أردتني في أمر، يبدو أنك تريد أن تبقى وحيداً، تعال نشرب القهوة عندما تنتهي.

بعد الزيارة الأولى عمد إلى زيارة الساحة مرات عديدة، يحيّي الناس عبوراً دون التوقف بهم، وصارت عادتهم أن يتركوه وحيداً إذا لم يقترب منهم ليجالسهم، ويطرح عليهم أسئلة تذكره بأمور نسيها، أو في محاولة للتأكد من البعض الآخر. يسترجع نتف الذكريات ويرسم صوراً لشخصيات غائمة بعد مضي الزمان.

خيط خفي يربطه بالمدينة متجذرٌ في داخله يمتد إلى القلعة والبرج والكنيسة والخندق والخلقين، مدينة رسمت ملامح طفولته بكل ما فيها؛

بعضها أثر تأثيراً مباشراً وقوياً عليه: والده وعمه ورفاق طفولته، وبعضهم مر عبوراً لكنه كان شاهداً وفاعلاً في أحداث تلك الفترة؛ يحس بهم كحجارة فسيفساء ساهمت في بناء وتزيين المدينة، وماتزال ذكراهم ووجوههم حية تستيقظ في ذاكرته رغم غيابهم.

ويعود للسؤال هل الذاكرة في المكان أم أن المكان مختزن في ذاكرته، هل بقيت لهم أطياف أم أنَّها خدع نحاول من خلالها ربط الناس الذين عرفناهم أو سمعنا عنهم بالأمكنة؟

يتساءل: لماذا توروزا ولماذا المدينة ولماذا تملك كل تلك الحميمية في نفسه؟

ولماذا تختلط الأمور؟ ولماذا تقتحم أماكن أخرى ذاكرته فتنعشها؟ يخلط بين ذاكرة اليوم وذاكرة أمكنة الطفولة، حتى كاد أن يرى الحياة تنبعث من قلب الحجارة والأشجار والأمكنة. يعيد إلى الحياة صوراً لأيام مضت، كلما قلب نظره تومض صور لحادثة وقعت في هذا المكان أو ذاك لمدينة تضج بالحياة، يعيد ترتيب الأمكنة ويسترجع الشخوص يستدعي الأحياء والأموات، يمعن في ذاكرته حَفْراً ليعيد إلى الحياة هؤلاء الذين عرفهم ذات يوم وقد ملؤوا أرض المدينة وجوّها بالضحك والحيوية والنشاط.

في سني الطفولة حسب أن العالم هنا. مركز الكون ومنطلقه من توروزا، هكذا كانت أمه تقول، كما كانت تقول إن الشمس عندما تغرب تنام في البحر.

- ويسائل الطفل: لكن ألن تنطفئ يا أمي؟
- ياابني هي معجزة الله.
- لكن كيف تعود؟

- تدور تحت الأرض ثم تعود إلى الشرق من جديد.
- عاش مع قصص الجان والخرافات والأساطير وكأنها واقع، ومع حكايا الشتاء. وابتدأت طفولته الثانية مع صخرة الخَلْقِيْن، الصخرة التي امتدت إليها أيد آثمة فأغرقتها، أو ربما اقتلعتها أو ردمتها.

في اللحظة ذاتها تشتعل ذاكرته غضباً، يستدعي الصور القديمة المغروسة في أعماقه، يتوجه إلى الإله، أدعية تنساب من أعماقه، العقاب لأولئك الذين تطاولوا عليها. تتراءى له امرأة ناحلة عيناها جاحظتان تتألمان، تكاد تطفر دموعها، يتضرع في قلبه لحمايتها، يدٌ كبيرة وذراعان تطوقانها بحنان، تستعيد بنيانها الأول ، تعود كما كانت مدينة إثر أخرى بأسماء سحرية أليزاُ ثم توروسا، فانترادوس، كونستانتيا، تورتوزا، توروزا عجلة تدور وآلهة من البحر تنهض.

وصوت يقول: إنها مدينة البحر تولد وتموت ثم تولد وتموت، ثم تبعث من جديد.

تجار يصنعون الصباغ، بحارة يرحلون باتجاه المغيب، مراكب تبنى على شاطىء المدينة، في داخلها رجال يصلون لبعل وعشتار، فرسان يرفعون الصليب، وآخرون يرفعون القرآن. المدينة تمد أذرعها نحو السماء، شموس ساطعة وكواكب تتلألؤ في الظلمة.

يسائل نفسه وهو يستعيد كلمات أمه أليست هي توروزا التي حدثتني عنها، مدينة الحجارة الباردة والصلوات؟ يفيق من تصوراته ثم يعود إليها:

نهر الغمقة من الشمال ونهر العجمي من الجنوب، وبحر يصلها بأمها الأولى أرواد، يرتجف خياله ويبصر أمه تتابع الحديث، أهي خدعة بصرية أم رؤيا؟ حجارة المدينة تكبر تصغر تختفى يعاد تشكيلها امرأة من عظام

ودم ورمل وطين، أتراها مدينة أم أنثى تدب فيها الحياة؟ أمه تتحول إلى حجارة إلى مدينة والمدينة تتبادل المكان مع الأم.

المراكب ترحل من مرافىء المدينة: مرفأ في الجنوب، وآخر في الشمال وثالث على نهر الغمقة ورابع في عمريت. سفن تحمل جرار الزيت والزجاج وأقمشة بلون الأرجوان، وبحارة يحملون حروف لغة جديدة.

سفن تحمل أغانيَ ورجالاً، تندفع جامحة إلى ممالك البحر.

نخلة في عمريت، وسفن في أرواد، أشرعة تغادر الجزيرة تحمل على متنها وطناً من الأحلام. يتسكع على رصيف البحر، يبحر نظره نحو البعيد في إثر أولئك البحارة الذين بنوا ثم رحلوا، تعم جسده رعشة وهو يرى آثارهم رهن الاندثار.

امراة مكلله بالضياء ورجل كإزار الليل

ذاكرة الطفولة

الجـدة

فسحة سماوية وغرفتان تتعانق أقواس كل واحدة منها بحجارة متجاورة، وتتساءل العينان الشاردتان: كيف يمكن للحجارة في أعلى السقف أن تقف في مستقرها يلامس كل حجر منها الحجر الآخر ، كلما نظر إلى الأعلى يخال أنها ستقع فوق رأسه، ولمدة طويلة يتساءل:

ترى ماهي القوة التي تمنعها من السقوط؟

جدّه وجدته تجاوزا المائة عام ، هو أسمر اللون كأجداده الذين أتوا من اليمن، ولعنة لحقت بهم ألا يستقروا في مكان، وأن يتفرق أولاده م وأحفاده م في بلدان كثيرة، ويظهر أن تلك اللعنة أصابت سلالة جده الأكبر وتوزع أحفاده المشاكسون في أماكن وبلدان متباعدة من البرازيل إلى إسبانيا إلى أمريكا وكندا والعراق.

أما جدته فرقيقة بيضاء عيناها كما زرقة السماء. إنهما يقيم ان معهم بل هم الذين يقيمون معه ما؛ فلقد ولد و وجدهما، جد ه الذي حمل لقب الرجل الصارم تخلى عن صرامته بعد أن وصل حدود المائة عام، وتعلق في عشق صبية في الثلاثين من عمرها؛ يأمر لها بالطعام والحلوى والنقود ويعلن صراحة نيته بالزواج منها، وتمت موافقة أهلها وموافقتها وهم يعلمون أنهم يتزوجون ثروة كبيرة.

آن دخولها المنزل تطل الفرحة من عينيه، ويأمر بأن يتركا معاً وحيدين في الغرفة، تغادر جدته وهي تبتسم للجارة الفاتنة ، مخلية لها المكان كي تؤنس الشيخ الخرف الذي أخذ ينطق الشعر ، وأخذت تنبت له أسنان جديدة. وفي تلك الخلوات التي اعتبرتها جدت ه وأعمام ه فكاهية اتفق جد ه مع عشيقته سراً على ترتيبات الزواج كافة، تاركين جدته ووالد ه وأعمام ه في غفلة عما يجري إلى أن أتى يوم المفاجأة.

ذات مساء أتى شيخ جامع الساحة مع أهل العروس والحارس وشرطيان من المخفر والمختار وشهود لعقد القران وكتابة المقدم والمؤخر. آن بدا الموضوع جدياً ومباغتاً تنادى الأعمام، وأخبروا الجيران الذين يطلبون القربى والمصاهرة، بأنَّ جد ه لم يعد يملك وعيه وكانوا يعرفون ذلك، لكن الأمر الذي جعلهم ينصرفون محبطين ويحجمون عن متابعة المراسيم ؛ أنه ماعاد يملك رزقه، فلقد تنازل عن كل ماكان ذات يوم بحوزته لأولاده. وعندما تيقنت العروس أنها لن تنال منه سوى روائح الشيخوخة ؛ اختفت وأهلوها كومضة برقٍ، ضحك كرش المختار وارتبك الشرطيان وعبس الحارس وتفرق الشهود.

أما الجدة الصابرة التي لم تتجرأ يوماً على النظر في عيني رجلها العبوس، فلقد تجرأت هذه المرة، وبكلمات قليلة علا صوتها ولعلها المرة الأولى في حياتها:

أبعد هذا العمر يا أبو أحمد؟

نظر جد ه إليها شزراً وقد استعاد صورة من سطوته التي امتلكها فيما مضى:

لئن تفوهت بكلمة واحد ة سأنفذ فيك قول الله العظيم ((واهجروهن في المضاجع)) صدق الله العظيم.

تبتسم الجدة ثم تنفرج شفتاها وتضحك ويضحك معها والد هوأعمام ه ومع ضحكها تخرج كلمات من حنجرتها وهي تحرك راحة يدها يمنة ويسر ة بسخرية كمن يشير إلى أمر قد انتهى منذ زمن بعيد.

- ياه يا أبو أحمد لقد انقضى ذلك الأمر منذ أكثر من خمسين عاماً، أما زلت تعتقد أنك ذلك الرجل القادر.

نهرها الجد بجدية مطلقة:

-آه إنكم تدعون أنكم تدارون عجزي؛ فقط لو تركتم ذلك الأمر يتم كنت سترين أنني سأرزق بالتوائم وأملأ البيت عليك وعلينا أولاداً بعد أن شخْتِ وأصبحت عاقراً.

بعدها أخذ يدندن بأشعار يرندحها لـفلطمة تلك التي أبعدوها عنه وفرقوا بينهما ولم يعد يسمع شيئاً مما يدور حوله.

رفع ابنه أحمد عصاه نحو السماء محيياً والده وأطلق نيرانها باتجاه الغيوم دي دي دي، بم بم بم، بينما برقت عيناه المبيضتان بدموع ضاحكة.

بينما أبو أحمد يهزج:

تعطري بالغار يافاطمة، تعطري بالورد والياسمين، غداً تزفين إلى فارسك على ظهر فرس أبيض.

قاطعه أحمد ثانية الله الله يا أبا أحمد: دي دي دي، بم بم بم.

الخروج من سجن الرحم إلى سجن الخوجاية

الخوجاية

«دق السنة ع الرنة

بعتتني معلمتي

ع حاكورة البصل

وقع مني وانكسر

مدي رجلك يا عروس

اللي محمّلة بالذهب وبالفلوس».

والدته تمسك بيده وتحكي له عن الخوجاية نصرية، هي طلبت بنفسها أن يأتي إليها كي تربيه وتعلمه القرآن،وقالت إنها تحبه كثيراً.

رائحة والدته تعبق في أنفه، ناعمة عطرة ممتزجة قليلاً برائحة النرجيلة وبكثير من الحب.

قلبه مرتجف، وهو لا يدري تماماً ماذا تقصد أمه بكل تلك الأحاديث عن الخوجاية.

عندما اقتربا من المنزل ، هرب قلبه ، تمنى لو يحرن، صوت من داخله يقول:«لاتذهب توقف»، يحاول الاستماع إليه يتردد قليلاً تجره والدته تتعثر قدمه، يسقط على الأرض، ترفعه بهدوء «يالله ياوضاح الخوجاية ناطرة » أصوات الأطفال تتردد بإيقاع منتظم من خلال الفسحة السماوية للمنزل.

- دق السنة ع الرنة....

دقت الوالدة على الباب الخشبي، علت دقات قلبه فوق قرع الباب : قال الآخر في داخله «لاتدخل»،علا الصوت من الداخل فوق صوت الأطفال، صرَّ الباب وهي تدفعه، انتقلت عيون الأطفال تراقب الوافد الجديد.

رفعت والدته المنديل الشفاف عن وجهها فبانت حمرتها وتساقطت حبات العرق.

وضّاح، هذه خوجايتك، قبّل يدها يا وضّاح. انتقلت نظراته إلى الوجه الأسمر المعروق النحيل، الأنف المعقوف، والشعر الموشى بالشيب. يسقط رأسه على كتفه يحمر وجهه يكاد الدم ينفر منه، يقترب مرتجفاً، الدموع تتجمد في محجريه يسمع صوتاً من الداخل «لاتفعل إنها بشعة كالجنية السوداء»، يقترب ببطء يلثم اليد المعروقة يبللها بدموعه.

- وضّاح سيبقى معك من الصباح إلى المساء «زرابة» .يقول الصوت «ألم أقل لك ها أنت تدخل السجن بقدميك؟ » فيما بعد علم أن الزريبة للحيوانات، لكن زرابة هنا تعني ما قالته والدته منذ شروق الشمس حتى مغيبها.

لم يدرِ أن والدته أسلمته لسجن سيطول لمدة ثلاث سنوات وسوف يمتد أثره عليه ليشمل مساحة عمره.

في الظهيرة يذهب الأطفال إلى بيوتهم يلعبون مع أخوتهم ، يرون والديهم أما هو فيبقى وحيداً مع صوته الآخر ومع المرأة الغراب التي لقمته الدروس الأولى في الكثير من الأمور.

دخلت فتحية، قالت الخوجاية:

- هذه فتحية رفيقتك ستتعلم القرآن معها وهذا عبد الواحد.

فتحية طويلة ناحلة رقيقة الملامح ، أما عبد الواحد فكانت عينه اليمنى تنظر نحو اليسرى، واليسرى نحو اليمنى، وكلتاهما تنظران نحو أنفه.

لا يذكر أنه سمع صوت فتحية إلا عندما تقرأ القرآن أو تردد أغنيات الأطفال.

أما عبد الواحد فاعتاد أن يحادثهما عن أشياء كثيرة، عن البحر واللعب على الشاطئ واللعب في الحارة، يصف لهما صيادي السمك وكيف يلقون الشباك ويعجب وضاح لأنه يعرف كل تلك الأمور.

- وضّاح هل تحب النعومة؟

- نعم.

- تعال.

أمسك بيده وأخذه إلى الباب، خلف حاجب الباب يوجد حجر رملي حفرته الرطوبة، داخل الحجر حتاته، تناول قليلاً بإصبعه لعقها.

- ألا تجرب؟.

- نعم

لعق وضّاح قليلاً من النعومة، لا يذكر مذاقاً مشابهاً لكنه أحبه ا، وصارت هذه عادتهما على الدوام، فالحجر مهترئ يتفتت بسهولة ، وهما يكتفيان بحكه قليلاً ثم بلعقة من النعومة، يتناولانها في فترة الاستراحة.

* * * *

الدرس الأول:

ألف لا شين عليها، والباء نقطة من تحتها والتاء اثنان من فوقها، والجيم نقطة من تحتها والحاء لا شين عليها. يقول الصوت : ما هذا التعليم ألا تعتقد أن اللعب أجمل؟»

نعم ولكن!

«لكن ماذا»؟

لن تسمح أمي بتركي الخوجاية.

«لماذ لاتجرب وتخبرها بمَا تريد؟»

لا لا لا أجرؤ.

«ألم أخبرك بأنك تخاف أي أنت جبان.؟»

عند الظهيرة وقبيل ذهاب الأطفال إلى منازلهم، الحاجة نصرية تردد:

- عبدالواحد إلى البيت، لا تلعب بالحارة، إلى البيت مباشرة، فتحية إلى البيت لا تتأخري.

مع كل اسم تردده الحاجة يشعر بالوحشة، شيء ما سينفلت منه، غصة ودموع محتبسة يبكي نحو الداخل بينما يبقى وحيداً لبعض الوقت.

قيد سري يربطه إلى جدران الغرفة تتأجج داخله نيران يرمدها، تختفي دموعه يتساءل في صمته، لماذا هذا العذاب؟

يأتي الصوت يحادثه «هاأنت ذا وحيد».

- سأنتظر فتحية.

«فتحية بنت هل تلعب مع البنات»؟

يخرج الصوت «تعال نلعب». أنا لن أتركك لوحدتك، يخرج من فمه صوتين بنغمتين مختلفتين، نغمة تخصه والثانية للصوت الآخر.

- شو بدك مني بدي أبقى لوحدي

- لا لن تبقى وحيداً هيا نلعب.

- لكن بماذا نلعب؟

- دق السنة.

- لقد مللت هذه اللعبة.

يعلو صوت الخوجاية:

- «ولا وضاح مين معك.. مع مين عم تحكي؟»

يقول الصوت الآخر إنها تتدخل في وحدتك شو هاالخوياجة.

ويلهفة وخوف يقول له وضاح هيا ابتعد ثم يطرق رأسه ويغرز عينيه في الأرض كأنما يتابع تشابك الحصير الذي يجلس عليه.

يدخل الغراب عابساً ترتجف الشعرات المتوجة للشفة العلوية.. تتحرك الشفتان تهمس:

(الصبي لوحده راح يفقد عقله) تلتفت إليه.. تأمره الخوجاية:

قف واسند الحائط وتكتف.

يقول الآخر في داخله: إنها مجنونة.

يهمس وضاح: لا ترفع صوتك سنتحادث فيم بعد. حالما تختفي يعود الصوت «تعال نلعب».

- بشرط : إذا أتت تختفي حالاً.

..يبدأان اللعب والحوار، التحليق والطيران والذهاب إلى أماكن بعيدة يقفزان من البرج طائرين في السموات يغوصان. في البحار، لا شيء يحدهما. يتهامسان ويلهوان إلى أن تأتي فتحية، يقف صاحبه صامتاً يقول:

والآن ؟

يقول وضاح: الآن عليك الذهاب، أما إذا بقيت فلا يمكنك المشاركة.

- لكنها فتاة هل تلعب مع الفتيات.

- إنها رفيقتى كما تعلم، اذهب الآن.

كم تمن أن يقدم هذا الآخر لفتحية.

وكم تمنى أن يسألها هل هناك صوت ما يأتيها لتلهو معه عندما تكون وحيدة؟

يصل عبد الواحد وتبدأ فصول الشقاوة إلى أن يأتيهم شبح الرعب من جديد.

فتحية تسكن قرب منزل الخوجاية تتغيب حوالي الساعة ثم تعود . بعد أربعين عاماً عندما قابل فتحية رآها ترتدي كيساً أسود. مدَّ يده مصافحاً؛ دفعت بجزء من الكيس الأسود ليلامس يده أحسَّ بالخيبة، ظن لوهلة أنه سيعانقها، فلقد اعتاد أن يدعوها أختي، كما أنها كثيراً ما كانت ترسل له سلاماً مع أهلها، (أختك فتحية تهديك السلام). وهكذا رأى أخته فتحية في عالم مختلف عن عالمه إحساسٌ بالغربة انبثق بينهما ، لكن ماخفف عنه أنه رأى ألماً في عينيها أو هكذا تهيأ له وربما فشل في قراءة تلك الصورة.

والآن سأعلمكم طريقة ثانية لحفظ الحروف ، فلقد جمعت في جمل وتلك الجمل هي موضوع درس أبجد هوز.

- والآن ستحفظون هذا الدرس الجديد.
- أبجد هوز حطي كلمن
- أبجد هوز حطي كلمن
- سعفص قرشت
- معلمتي ما معنى سعفص؟
- العصا ستخبرك معناها يا ولد.
- ستخبرك.....دع العصا يا ولد.

يتشبث عبد الواحد بالعصا ودموعه تنهمر نحو أنفه.

- «التوبة أﷲ يخليك التوبة».

طائر الرعب يلحق بالعصا، ينقض صاعقاً. لابد وأن ينهال عليهما كل يوم، (من أجل التربية الحسنة) ؛ ألم تقل والدته: (اللحم لكِ والعظم لنا)، ألم تقل خوجايته العصا من الجنة؟

يتابع صوت الغراب : قاق، ومن عصى فقد عص ى، وعلى كل حرف لا تحفظه ستنال عصا. ويتساءل:

أتراها حقاً من الجنة؟ إذن ما هذه الجنة!

ثم بجدية وبصوت يخفت:

هذه الكلمة لا معنى لها، إنها لتحفظ (أحرف الهجاء) يا ولد، يتسع محجرا عينيها، ينسل قلبه نحو قدميه.

يحمد الله أن الأسئلة تجمدت في حلق ه لكنَّ العصا لم تتأخر ، فما أن خرجت الحاجة للصلاة؛ حتى ابتدأ العراك بينه وبين عبد الواحد، يحاول كل منهما اسقاط الآخر أرضاً، تغرز الأقدام في الأرض تتداخل الأرجل، يشد كل منهما رفيقه، فتحية تقف إلى جوار الباب كعادتها تشارك هما المؤامرة؛ بصمت وبخوف الأخت على أخويها، تراقبهما وتراقب الحاجة فما أن تقارب صلاتها الانتهاء، حتى تخبرهما:

انتهت الصلاة يجلسان مكتفين صامتين ، عيونهما مطرقة ، وجناتهما محمرة، والخوف يرسم ملامحهما.

وتأتي المرأة الغراب تحمل العصا في يدها، شبح أسود يرتدي غطاءً أبيض، الوجه النحيل المدبب والحاجب المقطب ، تتحرك الشعرات أعلى

الشفة وينفتح الفم الغائر فيتحرك الشارب ان، ومع انفراج الشفتين تبرز أسنان القطة السوداء.

- (عاملين حالكم عاقلين)، تهز رأسها ، (سمعتكم وأنا أصلي يا ويلكم مني) تنهال العصا على جنباتهما وهي تردد دعاء ما بعد الصلاة:

- «اللهم أنت السلام ومنك السلام»، وتنهال العصا متناغمة تحمل ذات اللحن والإيقاع لدعائها، يعلو الصوت «وإليك يعود السلام، تباركت »، وتسقط العصا، «وتعاليت» وتعلو العصا «يا ذا الجلال والإكرام». مع تكرار الدعاء يتكرر صعود العصا وهبوطها عليهما ومع نهاية أدعية الصلاة تهدأ الأمور.

- «شو لابسكم الجان ولاَّ الشيطان ؟ ماخليتوني كمل صلاتي مثل الخلق، ولك فتحية إنت مافيك تهديهم ثاني مرة جاي دورك».

ودموع فتحية تنسكب دون حاجة للتهديد والوعيد!

يبدأ رحى الطاحون بالجرش:

-« تعالوا بوسوا التوبة ». يَحْبو الثلاثة على أربع إلى أن يصلوا إلى اليد الشجرية يحنون عليها لتقبيلها ويَحْبون نحو الوراء إلى أن يصلوا أماكنهم فيجلسون مكتفين.

* * * *

بعد الانتهاء من حفظ الحروف ، أتى دور حفظ الدروس ودرس اليوم هو: الفاتحة. من منكم يحفظ الفاتحة؟

إنها أكثر سورة تُقرأ في القرآن حيث نقرؤها مع كل ركعة في الصلاة. وقراءتها فيها ثواب وأجر كبير.

الفاتحة: وهم يرددون كالببغاء، إلى أن جاء دور معاني الآيات، وأخذت تشرح لهم عن الصراط المستقيم.

-عندما تطيع والديك والخوجاية وتقوم بواجباتك: الصلاة والصيام والعبادة فسوف يصبح الصراط المستقيم أمامك طريقاً عريضاً الصراط المستقيم هو الطريق إلى الجن ة، إنه يعبر فوق نار جهن م، فإذا لم تكن مطيعاً يصبح كالشعرة. ومن يمشي على الشعرة فسيهوي في نار جهنم.

- هل يمكنك أن تمشي فوق الشعرة يا عبد الواحد؟

- نعم يا خوجايتي.. أقصد لا لا.

كان عود الرمان قد نال من قدمي عبد الواحد قبل أن يردد كلمة لا.

- إذا لم تكن مطيعاً يا عبد الواحد سوف تنقطع بك الشعرة وتسقط في نار جهنم إذا لعبت بالحارة وعذبت أمك وأخواتك فستهوي في نار جهنم. إذا لم تأت بالخرجية للخوجاية فسوف تنقطع الشعرة وتحترق في نار جهنم، ثم يتجدد جلدك ثم تحترق، وسوف يزكم أنفك برائحة الجلد المحترق.

- هل شممت رائحة الجلد المحترق ياعبد الواحد؟

- لا يا خوجايتي.

- إنها كالرائحة التي تنبعث من دكان السكاكيني وهو يشوي القرون.

- لكنني أحب تلك الرائحة.

-«ولك عبد الواحد يحبك برص»، إن شاء الله ستتشم رائحة جلدك كتلك الرائحة إذا بقيت على شقاوتك، أما إذا أطعت والديك والخوجاية ، ولم تلعب بالحارة في طريق عودتك للبيت فسوف يصبح الطريق عريضاً إلى الجنة.

ويسأل الصوت الآخر في الداخل وضاح متهكماً: ماعلاقة الخوجاية الشمطاء بالجنة، وهل أسلم الله مفاتيح جنته لهذا الغراب ! إحساس

بالغرابة: امرأة تعلم هم القرآن وإذا أخطأ أحدهم بكلمة تصححها بالعصا ، وهي لاتعرف الابتسام ولا الضحك ولا المزاح.

وفي الغرفة التالية للمنزل المكون من غرفتين وفسحة دار تقيم عائلة أخيها:

نور ذات الشعر الذهبي تفرده في نور الشمس فيضيئ،خديجة، وهناء الرقيقة الشديدة البياض عيناها زرقاوان كزرقة البحر، عائلة مصابة بالهلع من الخوجاية ، والمعارك مستمرة بينها وبين أخيها السيد حلمي ، يعلو صراخهما،ثم يهدأ، وبعد نهاية العراك تجلس على المصلاة ، وبعد الصلاة، ترفع دعواتها إلى السماء؛ سائلة الله أن يهد أخاها ويقصف عمره ويحرق أولاده، وإذا سمعها وحاول مقاطعة دعاءها ، تبدأ بصب اللعنات من جديد، وتهدد بأنها ستعبد الصليب.

يقفز الآخر من داخل وضاح: ((اسمع ماهذا! ماذا تقول الصليب أتدري ماهو الصليب ياوضاح؟)) – لا وأنت؟

«لا لا أعلم».

تعمد إلى الصلاة في الفسحة السماوية للدار ، تتوجه بحديثها مباشرة إلى بوابات السماء.

يهز الرجل رأسه ثم ينسحب مهزوماً:

- لك الله أيتها الكافرة، تصلين لله وتحاربين السماء، لا لن يستمع الله إلى دعائك ولن يتقبل صلاتك، يقول تلك الكلمات وهو يهم بالخروج هرباً من اللعنات التي ستلحق به وتطارده وتمطر عليه وابلاً من السماء.

- «اسمع ياوضاح ينعتها أخوها بالكافرة! كافرة تعلمك القرآن لماذا لا تخبر والدتك فتبقيك فى البيت»؟

يلح السؤال على وضاح ماهو هذا الصليب الذي تهدد أخاها بعبادته؟

لم يشعر بالحب يوماً تجاه معلمت ه العانس، العصابية النحيلة. هو يخافها و يخشى صراخها وعصاها ، و يقبّل يدها مرغماً كل صباح، و يضع فيها «الخرجية» ثمن القضامة..البليلة.. الترمس أو القرمش، ويرى عينيها تبتسمان برهة بينما يلامس الفرنك راحة يدها، ثم يعود التجهم إليهما من حديد.

ولأنها قاسية حادة الطباع فقد كانت أم ه تعتقد أنها ستصوغ ه رجلاً وتعلم ه تلاوة القرآن.

وضّاح لم يقتنع يوماً بأنها من حراس الله ، كم حسد أولاد عم ه الذين نجوا منها، وذهبوا إلى الخوجاية بهية ، ففي زيارته لهم ذات يوم بمناسبة ختمة ابنة عمه للقرآن ، رأى خوجايتهم ذات الوجه الملائكي والعينين الزرقاوين السماويتين والبسمة الوضاءة. صوتها حنون، تتحدث إليهم بصوت هادئ رقيق.

في القادم من الأيام سؤال لايبرح مخيلته:

- لماذا حلَّ علي غضب السماء من طفولتي الأولى؟. سجن مع التعذيب، بعد ثلاث سنوات ينقل إلى مدرسة الراهبات إلى عالم آخر مختلف عن عالم الخوجاية ؛ ليشعر أن ه نجا من العذاب الكبير ، ربما إلى نمط مختلف من التربية التي لاتخلو من بعض القسوة.

في الشتاء عندما يصيبه البلل في الطريق من المنزل إلى الخوجاي ة، يقترب من منقل الدِقْ النحاسي لتدفئة يديه،أما القدم ان فممنوع تدفئتهما حتى لا تصابا «بالتشتي»، وفي كثير من الأحيان تقوم العصا بمهمة التدفئة.

اليوم درس سيدنا ابراهيم، وستحفظون بعدها الصلوات الإبراهيمية.

وتتالت الأيام متشابهة لسنوات ثلاث.

عند الغروب تأتي ماريا لتصطحبه: يتحدث الصوت «أتت ماريا لتأخذك، اطلب منها ألا تأخذك إلى البيت، العب قليلا مع عبد الواحد ومع أولاد الساحة».

لكنَّ ماريا لاتسمح له باللعب، ماريا هي أختهـ الكبيرة، ولها سلطة مطلقة عليهـ وعلى أخوته في غياب أمه، تقسو عليهم عندما تزداد شقاوتهم في المنزل، لكنها تحمل محبة وحنانا كما الأم ، تكبرهـ بحوالي عشر سنوات، في اليوم الأول اصطحبته في المساء إلى المنزل. أمسكت بيدهـ فرحة بهـ فهي لم ترهـ منذ الصباح

رأسهـ مثقلٌ بأشياء كثيرة، لايمكنه أن يعبر عنها بكلمات، يحاور صديقه من الداخل لكنه لايعرف أكثر منه، ع الم جديد رغم انغلاقه ؛ بدا أفقاً آخر. فتحية الناعسة وعبد الواحد المتصالب العينين والمرأة الغراب ذات الأنف المعقوف والشاربين.

******

آن وصولهـ إلى المنزل استقبلتهـ أمهـ عبقت رائحتها في أنفهـ شيء ما من العطر الناعم الممتزج برائحة النرجيلة المختلط بعبق الأم. وهي تقبّل هـ بصوت مرتفع، طفرت دموعه بصمت.

- هل كنت سعيداً؟

«قال صوته الآخر قل الحقيقة لاتخف».

أشاح برأسهـ نعم.

- هل أعجبتك الخوجاية؟

«قال الصوت قل الحقيقة لاتجبن، ربما تبقيك في المنزل وتتخلص من سجن الخوجاية»

قال صوته المتهدج ورأسه: نعم.

كل مساء بعد عودته يناديه والده وبعد تقبيل يده يسأل:

- ماذا درست اليوم يا وضّاح؟

- الفاتحة.

- اتلها علي.

يبدأ بالتلاوة وبعد الانتهاء يسأله:

- من هم الضالون يا أبي؟

- إنهم الذين لا يسيرون على الصراط المستقيم.

- هل سيكون الصراط المستقيم كالشعرة وإذا وقع الإنسان سيسقط في جهنم.

- إذا كان الإنسان مؤمناً هذه الشعرة لن يراها شعرة، بل ستكون كالطريق الواسع.

يقول الصوت «لماذا لاتسأل من هو المؤمن»؟

في الليل سمع والده يهمس لوالدته:

- إنها ترعبهم بنار جهنم، ما هكذا يكون تعليم القرآن للأطفال.

- لكنك تعلم أنها امرأة صالحة.

زفر والده وقال متأففاً:

- كل ما أعرفه أنها عصبية المزاج وقاسية وظالمة.

- هكذا سيكون ابنك رجلاً.

قال والده:

- لا حول ولا قوة إلا بالله،«أرجو ألاّ تعقد الصبي».

في الليلة التي تعلم فيها الفاتحة غفا وهو يفكر بالصراط المستقيم وهل ستكون أمامه شعرة أم طريقاً؟

ثم أخذ يسائل صوته الآخر عن الشرور التي ارتكبْها، اللعب مع عبد الواحد أم أكل النعومة ، أم الصراخ أم ضرب أخ يه الصغير أم اللعب في البيت، ويتساءل هل سيكون الطريق شعرة؟

في تلك الليلة آن سقوطه في النوم ، رأى نفسه يهوي إلى طريق محتفرة، مغطاة بدخان كثيف، ينابيع من نار تفور من الأرض يمشي مرتعباً متجنباً ينابيع النار ، منحدرات وطرق وعرة ، أناس يشوون تنسلخ جلودهم يصرخون، يخرج من أفواههم له ب، يشم روائح الجلود المحترقة ، ويشعر بوهج النار، يرى أمارات الألم والتضرع على الوجوه المحترقة التي لاتلبث أن تترمد ، تتجمع لتتكون من جديد ، يصرخ ولا يسمع صوته ثم يصل إلى الضفة، نهر من النار ، لا طريق فوقه، لا جسر ولا معبر، يبحث عن معبر، عن طريق، حتى عن شعرة عبد الواحد التي هددته بها الخوجاية أين هي الشعرة؟

الحاجة نصرية تسير خلفه ومعها فتحية وعبد الواحد، الحاجة نصرية تقترب منه، يكاد يهوي في النهر. الحاجة نصرية تحمل عود الرمان يبتسم الغراب، تخرج ألسنة اللهب من حلقها، ألسنة اللهب تقترب من قدمي ه يرى فسحة سماوية زرقاء، تكاد قدم اه تنزلقان، يتشبث بالحافة التي تودي إلى الهاوية يصرخ.

لهب وحديد وجلود تكوى
تنسلخ ثم تُعاد كسوتها

خوف ورعب ودموع.

طفل ضعيف تستولي الخديعة عليه

أشجار تحترق ينجو منها ابراهيم

نهر من النار يسبح فيه

ينابيع حارة،

رياح من لهب

عبد الواحد وفتحية يراقبانه جزعين، ونصرية تنفخ النار.

حبل يمتد إليه

مجذاف وقارب

ينقطع الحبل، يحترق القارب يغوص في النار

يطفو زورق من حديد، يقترب... النار تبتعد،

يشرق وجه أمه على القارب تمد يدها، يستفيق من نومه.

الدموع تنهمر، يستيقظ والداه، تُهرع أمه:

- وضّاح، بسم الله عليك، تضع يدها على رأسه ينغمس رأسه في صدرها.

- ماذا؟

- يقول والده إنه كابوس الخوجاية نصرية.

- ماذا رأيت يا وضّاح.

لا يجرؤ على وصف ما رأى، يذكر نتفاً من الحلم

- رأيت نهراً من نار. تصرخ أمه: ياويلي أكاد أسمع دقات قلبه، حرارته مرتفعة.

لايتذكر كم بقي تحت وطأة الحلم المريع ؛ لكنّه أمضى تلك الليلة إلى جوار والديه حتى الصباح.

الأيام تتوالى. الخوجاية تأتي بوجهها المتجهم، تجف حلوقهم، يبتلعون ألسنتهم لدرس جديد.

******

منزل الخوجاية في إحدى غرف القلعة، في قاعة الفرسان التي جزئت إلى بيوت عدة، توروزا القديمة حيث تقيم: قلعة وأبراج ومدينة مسورة احتلتها المنازل، المنازل غرف عقد عمرها يقارب الألف عام تمَّ تعديل بيوتها عشوائياً حسب احتياجات الساكنين.

سقف الغرفة مستور بالخشب البني، أما الغرفة المجاورة فسقفها عقدٌ يشكل قبة كبيرة، تتعانق أربعة أقواس في تكوينها.

*****

يبدأ الصباح بقراءة الفاتحة ؛ لكن صورة الصراط المستقيم تبقى في مخيلته زمناً طويلاً من حياته وسؤال يلح عليه: أتراها شعرة أم طريق؟ من هم المغضوب عليهم ومن هم الضالين؟

يضج الصوت من داخله:

- كيف يمكن للشعرة أن تتسع لتصبح طريقاً؟ ولماذا الشعرة فوق النار؟ ألا تحترق الشعرة بلهب النار، كيف يسير الإنسان على الشعرة؟

الحلم الكابوسي يطارده سنوات طويلة بأشكال مختلفة ، لكن الأرض الفوارة بالنيران وعبورها شبه المستحيل يتكرر. مشهد رسمته له الخوجاية نصرية، وهي ترى الناس العاصين والمخطئين والكفرة يشوون في جهنم. العاصين الذين يعصون الحاجة نصرية ويعذبون آباءهم، ويعصون الله.

ومن يومها وهو يتساءل عن الثمن الذي يجب علي هدفعه ثمنا لولادة ووجود لاعلاقة له بهم!!

وكثيراً ماتساءل مع صوته الآخر : أترى وجودنا نعمة أم نقمة أهو وجود للعذاب؟ لرحلة ترسمها امرأة من سواد ورعب، و يتساءل: لماذا كل مايبه ج محرم وممنوع؟

الحاجة نصرية لم تكن تتحدث مطلقاً عن الجنة، معها ومع أحاديثها يرى الظلمة تلف الحياة وبعدها تأتي جهنم. ولادة فعذاب على يديها ثم عذاب في الحياة ونار يوم القيامة.

في الخارج ينظر إلى السماء و يرى الزرقة البعيدة، غيوم كقطعان الغنم التي يرعاها المسيح كما أخبره فيما بعد رفيقه عماد ، يحاول رسم صورة المسيح كقامة مهيبة ترعى القطعان، وفي المنزل يستمع إلى أحاديث والده وإلى حكايا جدته الرقيقة والتي يدعوها والده بالملاك الطاهر،

يرى في صفاء عينيها وزرقتهما زرقة السماء.

والده يحدثه عن الجنة والملائكة والأنبياء وعن إبليس العاصي ، يرى في كلامه عالماً مختلفاً لما تصوره الخوجاية التي اعتاد أن يسمها واحدة من حراس جهنم المتجهمين.

عينان متقدتان تتجهان صوب السماء.

الزرقة عميقة وبعيدة.

أين هو الجحيم؟

أشكال بشرية من سحاب،

تسرح في البعيد،

أتراها صور الأنبياء؟

طيور تحلق كالملائكة،

وحقول الأرجوان تحف بالضياء المقدس،

أين اللهب والحديد؟

يرتاب عقل الطفل،

يتساءل عن الخلاص،

يخجل من دموعه،

نسمات رطبة تداعب وجنتيه

بينما يفكر في الألغاز

التي تواجهه على عتبة الحياة.

****

صور عتيقة

ذات صباح بدت فتحية شاحبة صفراء الوجه ، دخلت خجلة ولم تجلس إلى جوارهما.

قطعة بيضاء بحجم سلامة الأصبع تسقط منها تتحرك ، أخذها بين أصابعه تأملها مندهشاً، قطعة صغيرة مستطيلة تتموج تفوح منها رائحة كالجلد المحروق.

وضاح يحسب أن فتحية هي الوحيدة المهيأة لدخول الجنة، وأنها محصنة ضد الأمراض التي تصيب الأشقياء من الأولاد، مؤمنٌ بأنَّ الله لن يحاسب فتاة على هذه الدرجة من الطيب.

نظر إلى فتحية ؛ قالت باستحياء شديد : إنها الدودة الوحيدة أنا مصابة بها، هكذا قالت أمي.

أرسلوا من أجل الدواء، سيأتي من طرابلس.

أحسَّ بشيء من البرودة يعتري جسده، حِزنَ من أجلها، قال الصوت «أخشى أن تبقى الدودة داخلها، ثم تلتهم جسدها».

صرخت الخوجاية:

-«ولي فتحية شو هذا الله يغضب على الكفار ! روحي نادي على أمك».

فتحية تنزوي تكاد تذوب خجلاً، تضع يديها على وجهها، لاتجرؤ على رفع عينيها باتجاه الخوجاية، تهرع باتجاه الباب مرتبكة، تتعثر، يلاحقها صراخ الخوجاية:

- «ولي شو عمية كمان ؛ مابيكفي إنك مدودة! ولي بكرة بدو ياكلك الدود».

بعد قليل أتت أم فتحية ، أوصتها الخوجاية بأن تدق ½ أوقية بزر أبيض (جلنط) حتى يصبح كالبودرة تم تغليها بالماء ، ثم تقرأ عليها:لاتنسي أن تقرئي عليها آية الكرسي، ثم تسقي ماءها لفتحية وتطعميها بزراً أبيض لمدة يوم، ثم تأخذ شربة زيت الخروع وستشفى بإذن الله.

فتحية غابت لمدة يومين ثم عادت ، لتصف لهما حبلا طويلاً كالسلسلة، أشبه بالقطعة التي سقطت منها.

-ألم يبق منها شيء.

- لا. لا ذهبت كلها.

*****

في كثير من الأحيان لم تكن الدروس لتدخل إلى تلك العقول الصغيرة وغدا هذا سبباً كي يمارس عليهم الكثير من أساليب العقاب ، تبدأ بالصراخ والشتائم ثم الضرب بالعصا.

- وضّاح ارفع قدميك.

ويأتي الفلق متتالياً، ضرب على الساقين ثم القفا.

وبعد قليل تطلب إليه الوقوف على قدم واحدة لمدة طويلة حتى السقوط، وعندما يصبح العقاب قاسياً، يعلو البكاء ويأتي المنقذ من الغرفة الثانية.

الحاجة كاملة. تدخل بوجهها الطافح بالنور ، وترجو الخوجاية بإنهاء القصاص. وجه رحمانيّ ، صوت عذب، ينتهي العقاب بتقبيل يد الخوجاية ثلاث مرات ثم قراءة الآية المطلوبة وكتابتها عشر مرات إلى أن يحين

حفظها ثم اسماعها في اليوم التالي، بعد الاعتراف بالخطأ و ترديد القسم:
التوبة يا خوجايتي

«أقسم بالله العظيم بأنني لن أعيدها ثانية، التوبة».

تُقبَّل اليد وترفع إلى الرأس ثلاثاً مع ترديد القسم في كل مرة.

وتَقْبل الخوجاية الاعتذار هازةً رأسها.

«الخرجية الصباحية» لا تنسوا غداً مضاعفة، فرنك نحاسي أحمر عليه سنبلتان متصالبتان.

تضحك أسنان الخوجاية

(غداً دور غزل البنات ياولاد)

تقوم بصنعها بمهارة من السكر، يرون طريقة صنعه، وتزداد فرحتهم بينما يلامس الأنف والوجنتين ثم يذوب سكره في أفواههم بالتدريج.

*****

مع اقتراب فصل الصيف وتطاول النهار، تصرفهم الخوجاية قبل الأوان، وعندها ينطلق إلى بيت عمته أم محمود مقابل بيت الخوجاية تماماً.

وبيت عمته جزء من قاعة الفرسان في القلعة القديمة ، ترتفع فيه أعمدةٌ مزخرفة تعلوها تيجان و أقواس، عمته تقيم في غرفة ال مربع المتسعة، تجلس على فراش يتوسط الغرفة، أمام غرفتها فسحة دار سماوية، تليها غرفة محمود وزوجته خالدية.

عمته تحتفظ له دائماً بالمعمول والغريبة، وادعة حنون ، بدانتها مفرطة،لا يمكنها الوقوف على قدميها تحبو على أربع، السماحة والطيبة ترسم ملامح وجهها، شعرها طويل أشيب مجدول يتناثر فيه الشعر الأسود.

وفي غرفة ثالثة تسكن ابنتها الأرملة مع بناتها الثلاث.

روحية تناديه لتعطيه الشوكولا، لم ترزق بأولاد ، جميلة بيضاء ، حمرة قانية تصبغ شفتيها، تقبل وجنتيه عشرات القبل تاركة آثار الحمرة عليهما. ثم تجعل رأس ه في حضنها، بياضها حليبي وقبلاتها ككؤوس الهواء. فستانها القصير يكشف فخذين من مرمر أبيض لا تجاعيد فيهما، تلبس«كلسوناً» بلون أحمر، تجلس بحرية ولامبالاة، حتى أنه سمع النسوة يتحدثن ذات مرة عنها ،(المضروبة تجلس وتبرز مفاتنها مما يأخذ عقول الأطفال). وفي ذلك اليوم لم يكن يفهم ما الذي يأخذ عقول الأطفال، وربما مضى زمن طويل قبل أن يعرف ماترمي إليه تلك العبارة.

روحيةالتي لم تنجب تحب الأطفال ، لاتأبه لكلمات النسوة، ومحمود لم يكن يرَ في العالم أنثى سواها، ورغم تسميته بأبي بدر فهو لم يهتم بأن تأْتِيهُ ببدر فيما يقول، ولروحية ومحمود قصة غريبة، عرفها فيما بعد من والده عندما أصبح في سن أكبر. فلقد عشقها محمود ثم ذهب للدراسة في بيروت، ولما كان العشق عيباً ، قام والدها بتزويجها في غيابه، وعلم محمود بالأمر عند أول زيارة للمدينة، أحضر مسدساً وذهب إلى الزوج وأطلق طلقة في الهواء وقال : جئتك منذراً، المسدس محشو بتسع طلقات، اذهب اليوم إلى والدها وطلقها وإلا سأفرغ الطلقات في رأسك ، وأتبع كلماته بقسم عظيم.

في اليوم التالي طُلقت روحية، وبعد انتهاء العدة تزوجها محمود، لم يغادر المدينة ولم يترك روحية أبداً، ولقد كسب من ذهابه إلى بيروت لقب الأستاذ الذي لازمه بقية حياته.

* * * * * *

طفل آخر ينضم إليهم إنه أحمد النجار ، ولُقِّب بالحبقة لطوله الفارع ، منزله يستقر خلف سور القلعة وإلى جواره صيرة يزرب فيها الغنم، وتلك الصيرة ملأى بالأقواس القديمة. والده يصنع السكاكين اليدوية ، أحمد يقول بأنَّ والده أبرع من صنع السكاكين في العالم. وضاح يتردد مع الحبقة إلى دكان والده يتأمله وهو يقوم بعمله وحبات العرق تتساقط من جبينه.

يتناول قرن الخاروف ، يشويه على النار إلى أن يطوعه ، ثم يمسكه بالملزمة ويبدأ تشذيبه بسكين حادة تارة وبالمبرد تارة، ثم إلى النار فالملزمة فالتشذيب؛ إلى أن يأخذ شكل قبضة سكين يجعلها تتعقف أو تترك مستقيمة حسب الغاية من استعمالها ، وحسب حجمها والشكل المراد لها ، ثم تشق من الداخل كي تستقبل نصل السكين ، والقبضة قد تكون سكرية اللون أو سوداء ، أو تحمل أكثر من لون حسب قرن الخروف المستخدم، وقرن الماعز له جمالية وغرابة ؛ ولكن أجمل قبضة هي قبضة قرن الغزال التي تأتي بعدة ألوان ، ذات يوم حصل على قرن غزال، صنع منه سكينة صغيرة وقال:

ياوضّاح احتفظ بهذه السكين فالغزال أصبح اليوم شديد الندرة ويكاد ينقرض.

ثم يأتي دور النصل وهو غالباً من نوع مضاد للصدأ عندما تكون السكين للاستعمالات الشخصية، أما عندما تكون لفرم الدخان فيفضل الفولاذ، يضع النصل في نار حامية وينفخ عليه بالكور ، وبعد أن يصبح أحمر متوهجاً، يطرقه على السندان إلى أن يرق، ثم يُسّقيه بالماء ثم إلى النار وقد تستغرق العملية ساعات طويلة، وبعد الانتهاء من عمله يرفع السكين بيديه، يتأملها بعين الرضا.

رائحة القرون المحترقة غريبة ، ورغم نفوذيتها كان يشعر بالنشوة لتنشقها، ورائحة الحريق لدي هـبقيت مرتبطةً بذاكرة صنع السكين ، التي شهدها عشرات المرات. عملية تتصف بالإثارة يراقبها بشغف.

بعد قدوم الكهرباء، تحول الجلخ اليدوي إلى جلخ كهربائي، لكن أب ا برهان لم يتعامل معه أبداً، وتركه للعامل الذي يساعده، و بقي يفضل التعامل مع أدواته اليدوية التي اعتادها طوال حياته.

أبو برهان حاد القسمات نحيل ، يعمل بلا كلل طوال اليوم، والد وضاح يعبر به مسلِّماً كل صباح، ووالده اعتاد فرم الدخان بيده رغم أنه شحيح البصر، وأبو برهان يحضر أجمل النصال ل جاره فدكاناهما متجاورتان ، وتربطهما صداقة متينة.

ذات يوم وهو يتعامل مع نصل لغزال قال لوضاح: سأحدثك عن الصياد رزق الله، رجل من أمهر صيادي الحجل والغزلان، اعتاد الذهاب إلى البادية والتغيب لأيام، اصطاد الطائر الحر ذات يوم، أتدري ما هو الطائر الحر؟ إنه طائر نادر وصياد ، ثمنه مرتفع لندرته وجماله، يأتي صيادون من الخليج ويدفعون ثمنه مبالغ كبيرة، وذات يوم أتى رزق الله مهموماً:

قال لقد طلقت الصيد وبعت كافة بنادقي.

لماذا يا رزق الله؟

كنا في البادية لأيام مع صيادين تعرفهم ، (عوكس) وآخرين، غزال صغير في الأشهر الأولى من عمره، شرد يشرب من نبعة ماء، صوبت بندقيتي نحوه وترددت فهو صغير، إصبعي على الزناد وهو يشرب. لم أجرؤ على إطلاق النار عليه، أحسست بأن والدته ستتألم لفقدانه ، شئ ما اختلط عليَّ بين الإنسانى والحيوانى، لكننى عزمت ألا أطلق النار عليه،

تابعت تأمله، يشرب ثم يتلفت بغنج يمنة ويسرة وينظر إلى السماء. خشيت من أن يلمحه أحد رفاقي الصيادين فهم لن يوفروا طريدة غضة كهذه، عينان جميلتان وعنق متطاول ورأس يشمخ نحو السماء، أبعدت بندقيتي، وقفت وحاولت الاقتراب منه بهدوء كي لاينفر، انتبه لحركتي ارتبك واستدار، في ذات اللحظة انطلقت طلقة من رفيق صيد غير بعيد، أصابته في جبينه فسقط علىالأرض، أطلقتُ صرخة مدوية أرعبت رفيق صيدي، هُرعت إلى الظبي الصريع نظر في عيني، يالله ؛ دموع حقيقية تنهمر من عينيه! أحسست بأن جريمة ما ارتكبت، صرخت في وجه رفيقي: منذ ساعة وأنا أتأمل هذا الطفل البريء ماهو موقفك إذا أصيب ابنك!

حاول «عوكس» تهدئتي نحن صيادون يارزق الله، قالها بهدوء ونبرة حزن.

نظرت في وجهه، أطرق عينيه باستحياء.

لقد رأيت الدموع قال متأثراً.

أقسمت بعدها بأني لن أعود للصيد في حياتي. وحتى اليوم كلما تذكرت منظر الدموع المتساقطة تنتابني ارتعاشة رغم انطواء زمن طويل.

آلمه كثيراً الاستماع إلى قصة الغزال الصريع، بعد انتهاء القصة ، تساءل في داخله عن قاتل هذا الغزال الذي سيحمل سكيناً من قرنه أحس يومها أن صياد الغزال يمتلك قسوة القتلة، وأحس بالتعاطف معه رغم أنه لم يرَ سوى قرنه، ربما هو جميل ويبكي كالبشر، وتساءل هل كل الحيوانات تبكي كالبشر أم أنها سمة لذلك الحيوان الرقيق.

* * * * * *

مضى عامان على سجن الطفولة في الخوجاية، ثم انضمت إليهم سجيعة أخت روحية، هي في مثل عمره؛لكنها عكس فتحية ملأى بالحيوية والنشاط، تسعى لمغالبة الذكور، وتحشر أنفها بين هم، مبتعدة عن فتحية الصامتة الهادئة.

ذات مساء بعد الانصراف عند خروجهم إلى الزاروب قالت له سجيعة:

- وضّاح..

- نعم

- هل أرسم لك بستاناً؟

- نعم.

وضعت فمها على ساعده ثم غرست أسنانها بكل قوة، صرخ : آه وطفرت دموعه

قالت:

- لا تبكي، انظر هو ذا البستان يا وضّاح أليس جميلاً، بدا موقع أسنانها أشبه بأسلاك شائكة لها شكل المنشار المستدير، حواف زرقاء أخذت تمتلئ بالحمرة، تأمل الشكل الغريب الذي خلفته الأسنان مندهشاً ومتألماً من تلك الشيطانة المرحة الصغيرة، أما هي فأطلقت ضحكة جلجلت لها قاعة الفرسان، ثم مضت إلى منزلها المجاور.

اعتادت بعدها أن تسأله بمكر : وضّاح أأرسم لك بستاناً؟ يصرخ فيها : لا، ثم يلوذ بالفرار.

*****

أحمد الحبقة الرفيق الجديد اصطحبهم إلى شاطئ البحر، لاصطياد أبو شوارب و «محار الباطلونس» (البطليموس) البلطلونس ملتصق على

الصخور، حكَّ أحمد واحدة فانفصلت عن الصخرة، تصرف بهدوء كمحترف، الانفعال ينتاب وضاح، عيناه تبرقان يجلس إلى جواره على الصخرة يراقب حركاته، أتى بتنكة أشعل تحتها ناراً ووضع عليها عدة محارات، في البداية التصقت، وبعد قليل توهجت التنكة ارتفعت الصدفة ، تناول واحدة مقلداً أحمد وأكلها، أحس بطعمها الغريب وحرارتها تلسع لسانه، تحرك عبد الواحد ليتناول نصيبه، التقط واحدة برشاقة، مضغها وهو يعلن عن مذاقها الطيب.

ترى من اين جاءت
أمن حلم عائم في الفضاء
أم من كلمة وضعتها السماء على شفتيها؟

من جعبة الأم

لكل شيء في الطفولة جذوة لا تخبو ، والحماسة مستمرة من مرحلة لأخرى، وفي تلك المدينة التي انتقل إليها العالم مصغراً، شيء ما يبدو كأنه أزلي، هنا أُحضر الكون وبدا مختزلاً، واضح الحدود.

منزل على البحر يطل على صخرة الخلقين، ووالدة ترسم عوالم تُقنع الطفل ابن الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة بما تقول ، تبقى بعض جذور القناعة إلى ما بعد سني المراهقة، حيث تبدأ الدنيا بالتغير، والتاريخ يتلقاه الطفل من المدرسة ومن ذاكرة أم ه الشفهية، ومع ذلك فلتلك الذاكرة عوالم أكثر إدهاشاً من كتب التاريخ:

«خلق الله الرجل الأول نبينا آدم على صخرة الخلقين- وأشارت من الشرفة إلى الصخرة، وكان جلوسه الأول على حجر الكرسي أنت تعرف أين هي، وبعد خلقه علمه السباحة والأسماء كلها ، وصار آدم يعرف عدد أسماك البحر، وعدد الحيوانات والنباتات والملائكة والجن وكل شيء.

من تلك الصخرة ابتدأت سباحته الحقيقية، صخرة الخلقين، التي لا تبعد عن بيته، وعلى بعد يسيرٍ منها تقبع على العمق رملية الخلقين، وعن د صعوده الأول أعلى الصخرة أحسَّ بالخشوع، في محاولته تخيل كيفية خلق آدم على تلك الصخرة ، انتابه إحساسٌ أنه يضع يده ثم ركبتيه على ذات الأمكنة التي وضع جد ه آدم يديه وركبتيه، استعاد قصة والدته وأخذ يتأمل موضع الرأس وارتسمت عملية جبل آدم من الرمل والطين والكلس وماء البحر. إحساس بالرهبة أمام المقدس، رهبة صخرة الخلقين. هنا خلق

الرأس وهنا تمدد الجسد، وهنا موقع الساقين والقدمين، قال لنفسه : آدم لم يخلق طفلاً بل رجلاً مكتملاً، أحس بالحزن من أجله فهو لا يعرف أماً له، ولم يعش طفولته.

ملائكة تتنزل من السماء
تحيط بالصخرة
ضوءها الباهر ينير البحر
وهي تسبّح للرب.

فوق الصخرة
يتشكل الجسد
وروح تُبعث فيه
في لحظة قدسية

يفتح آدم عينيه
يرنو إلى المكان
والجسد
متأملاً لجة البحر
وسر الخلق

مخلوقات في بحر أزرق
شمس ذهبية
سماء لا نهائية
ليل، قمرونجوم

وحواء، سر الله الجميل
تخطر منه إليه
وجلين يقتربان، يلتحمان
وفوقهما تهفو الطيور
والملائكة ترتفع
في السماء الفسيحة.

وقف على منتصف الصخرة المقدسة و هو يخشى لوم جده آدم، لوقوفه على صخرته، مهد خلقه، صحا على صوت ابن خاله فاروق الذي علَّمه السباحة: انتبه لا تضع قدميك مكان الرأس.

اقرأ الفاتحة عن روح جدنا وسيدنا آدم.

وبعد الفاتحة التي قرأ اها معاً وألق ياها في البحر لروح سيد هما آدم وستهما حواء ؛ ابتدأ برنامج تعليم السباحة الحقيقي، فقبل ذلك بأشهر اعتادا السباحة مجاورين للشاطئ ، اليوم ابتدأت المرحلة الثانية؛ الإبحار نحو البعيد والغوص أعمق، مرحلة تبدأ من الخلقين ثم إلى رمليته حيث يغطسان لحمل قبضة رمل ، و يعدان كم مرة يمكن هما الوصول إلى القاع وحمل الرمل ثم قذفه في الهواء؛ دون أن تعلو رؤوسهما فوق الماء.

هذه المباريات يتنافس فيها ابن خاله فاروق وأخ وهـ عبدالغفور الذي يصغره بعام ونصف وابن عم هـ ممدوح.

وقالت أم هـ من ذاكرتها:

كان يامكان، كان في قديم الزمان ملك اسمه دقيانوس الجبار حكم مدينة توروزا وهذا الملك لم يكن مؤمناً بالله ونصب نفسه كإله.

«استغفر الله العظيم». ردد ورائي. ردد وراءها «استغفر الله العظيم».

ولقد بنى هذا الملك فوق سماء توروزا سقفاً من زجاج ووضع مصابيح كالنجوم، وقال للناس أنا ربكم فاعبدوني - وبسرعة قالت (أستغفر الله العظيم) ثلاث مرات.

تبعها مستغفراً مقلداً ، ذات مساء صنع أجنحة وصعد إلى البرج محاطاً بحاشيته وصحبه ومعاونيه، وأتى ببعض المساجين ، ووضع لهم أجنحة وقال لهم: طيروا من البرج فلما قفزوا ماتوا جميعاً، ولما رآهم يموتون قفز وراءهم، لكنه لم يمت.

الدهشة تعلو ملامحه وهو يستمع إلى القصة الغريبة ، ووالدته تمسد على رأسه مكملةً بقية حكايتها.

-هل تعلم لماذا مات جميع من قفز ماعداه؟ هزَّ رأسه نفياً.

ولم تنتظر والدته الإجابة بل تابعت:

ربط حبلاً من طرف البرج مجاوراً القبة الزجاجية إلى الطرف الآخر من المدينة.. وجعل حلقة تصل ظهره بالحبل ثم طار فوق الناس، والحبل على هذا الارتفاع لم يكن ليرى خاصة بعد أن عمت الظلمة المكان، وهكذا عمد إلى خداع الناس الذين ظنوه مقدسا وطيرانه واحدة من معجزاته فسجدوا له.

ومع مرور الزمن حاول تقليده كثيرون؛ لكنهم سقطوا جميعهم، وازداد إيمان الناس به رغم ظلمه وخوفاً من بطشه ، كانوا يجلبون له الحرير والزجاج المزخرف والذهب والعطايا.

- ألا ترى كسرات الزجاج الزرقاء القديمة على الشاطئ، تلك التي أصبحت حوافها مدورة؟

- نعم

- إنها من آنية الزجاج الذي اعتاد الناس صنعها لمليكهم العظيم.

ولما ازداد طغيانه وبينما كان يقوم بطيرانه الليلي المعتاد أرسل الله صواعق من السماء حطمت سماء دقيانوس الزجاجية ، وأصابته الصاعقة فمات، وارتاح شعبه، وكما ترى فالبرج فوق بيت خالك أديب طيارة هو البرج الذي اعتاد دقيانوس القفز منه في طيرانه ، ولقد تهدم جزء منه منذ تلك الأيام. وصارت تلك القصة عبرة للملوك المغضوب عليهم والضالين.

قال الصوت في داخله: «هل صدقتها؟»

– أمي، من أخبرك هذه القصة؟

– إنها معروفة يا ولدي، أمي وجدتي أخبرتاني إياه ا، ولقد أخبرتها أمها وجدتها وصولاً إلى أيام دقيانوس، ودقيانوس الجبار معروف في التاريخ ويجب أن تسأل معلمتك عنه.

دقيانوس يضع الأجنحة ويطير
دقيانوس يرتدي ثوب الخديعة

القيثارات تعزف للإله الطائر
فتيات تغني بأصوات ملائكية
دقيانوس الطائر يقتل منافسيه
إليه نرنو نحو الأعالي
دقيانوس القدوس
مملكته تتفوق على كل الممالك
سلطانه أقوى من سلاطين الأرض مجتمعين
يبني برجاً يرتفع إلى السماء
حجراً فوق حجر
برجاً يرتقي نحو الغيوم

صلفه يزداد كلما ارتفع

قواه تزداد كلما خطا نحو الأعالي
الملائكة تراقب برجاً صاعداً
سكان السماء يتأملون البرج باندهاش
الأوامر تصدر لآلهة الصواعق
ينكسر البرج يتهاوى
ينكسر دوقيانوس يتهاوى
يذوي يذوي، يتضرج وجهه وجسده بالدماء.
يسقط إثمه عليه.

حنجرة والدته تصدح تبني سماء وقناديل ونجوماً تضيء الظلمات تجلب له أطراف العالم، ينام على صوتها وهي تقص عليه بصوت كالوحي يمس شغاف القلب، يخطف عينيه بريق النجوم يرقد بين ألفة الصوت وهدأة الليل.

وضاح لم يسأل معلمته فما تقوله أمه صحيحٌ ومقدس وما يقوله الآخرون موضع شكٍ وريبة، وإذا لم يوجد دقيانوس في التاريخ فهنالك خلل ما في ذلك التاريخ يجب إصلاحه.

ورغم إعجابه بالرواية، وأمنيته أن تكون صحيحة ، أحسَّ بشيء ما يخزه ويخدش ذاكرته.

وهذا الصوت الآخر في داخله يبعث الشك إلى نفسه، فلا يدعه يشعر بالطمأنينة. يلح عليه في طرح الأسئلة: الخلقين وحجر الكرسي والبرج ودقيانوس، الجان والملك الأزرق والأحمر ، آمن بحجر الكرسي والخلقين

وقابيل وهابيل، ولكن قصة السماء الزجاجية بقيت بحاجة إلى المزيد من التروي، كيف نصبها وكيف وضع المصابيح والأسرجة؟

ولأنه كافرٌ، أُرسلت عليه الصواعق وتحطمت سماء دقيانوس الزجاجية.

– نعم، نعم لكنَّ مصطفى النجار بائع القهوة يقول أنَّ توز هو أول من طار، وسميت المدينة باسمه طار توز، والمعلمة تقول عباس ابن فرناس طار لكنه سقط لأنه نسي أيضاً أن يضع ذيلاً.

– وتقول والدتهكلاهما ليس ا على صواب و هي موقنة، أن قصة دقيانوس أكثر صحة لأنها منقولة بالمشافهة عن أم ها، عن جدتها وصولاً إلى دقيانوس.

وقالت الأم:

– وجلس الله على حجر الكرسي وخلق آدم على صخرة الخلقين ثم علَّمه كل شيء وأدخله الجنة ، وخلق له حواء من ضلعه ، وقال له لا تأكل من شجرة التفاح، وأتى الشيطان على شكل أفعى وقال له : كل من هذه الشجرة.

– ولكن الله أمرني أ لا.

– كل ففي هذه الشجرة أسرار الجنة والخلود.

ولما رفض قطفتها حواء وهي تطمع بالجنة والخلود لها ولزوجها ولذريتها من بعدها، أطعمته بيدها ، وأكلا من التفاحة معا وشاهدا نفسيهما عراة وأمرهما الله أن يهبطا إلى الأرض وهبطا على جبل الكرسي قرب الحجر.

وهناك حطا وتوالدا إلى أن اقتتل الأخوان قابيل وهابيل أولاد جدنا آدم، وعندما قتل قابيل هابيل دفنه في جبل الكرسي، ثم عندما مات قابيل دفن إلى جوار أخيه في ذات الجبل ، في قبر مجاور، وهناك سردابان في الجبل متجاوران، كل أخ دفن في سرداب.

لكن كيف خلق الله آدم على صخرة الخلقين وأنزله من الجنة؟

– هذه هي حكمة الله يابني؛ لأن الله يريده على الأرض، ولو شاء لمنع عنه أكل التفاحة ومخالفة أوامره وتركه في السماء.

كيف عرفت ذلك؟

الشيخ المجذوب رحمه الله ، علَّمنا القراءة والقرآن والتفسير وحكى لنا قصص القرآن.

اعتاد وضاح قبول الكثير من قصص والدته؛ لكن أسئلة جديدة تولد في ذاكرته، وهو يرى اختلاط قصص الأرض والسماء: العالم والكون والخلق، والدته اقتنعت بوجود عالم وكون قريب منها، يحمل في طياته الإجابات عن كل الأسئلة حيث تبدو الأمور كمسلمات لايمكن اجراء أي حوار أو نقاش حولها.

لكن الصوت الآخر يدوي في رأسه، ومع نموه أخذت حواف الكون بالابتعاد، والسماء التي ظللت سماء المدينة ارتفعت، والنجوم هربت نحو الأعالي؛ لكن وميضها مكث في ذاكرته لزمن بعيد.

اعتادت أمه القص عليه وعلى إخوته في مناسبات مختلفة؛ لكن حكايا الطفولة ويزداد ألقها في فصل الشتاء.

الشتاء

فسحة سماوية تطل من سقف الدار، مطرٌ غزير، رياح عاتية تهب من الغرب كالعويل، زئير بحر مائج، شرارات الصواعق وقصف الرعد ؛ لكأنها معارك بين عالم السماء وعالم البحر.

السماء الغاضبة تلقي بصواعقها على البحر، والبحر الثائر يتصدى بأمواجه لغضب السماء. منقل فحم ودق، والده يرتدي المشلح يختفي وضاح داخله، يفتح فرجة أمام عينيه، يقود أباه شحيح البصر من خلالها، يصير هو بمثابة عينيه، يسير به في طرقات المدينة إلى الدكان.

المدرسة بعيدة والمظلة الصغيرة تنقلب في الهواء، يغرق حذاؤه في حُفرِ الطرقات، أصابعه تتجمد ترفض الانضمام والانصياع لمسطرة المعلمة.

بعد المدرسة يلعب مع رفاقه تحت المطر، ثيابهم موحلة، الدفاتر مغرقة، تقول والدته:

البرد يقص المسمار، انتبهوا من البرد يا أولاد.

لعب وعراك، خدود حمر وبرد يرحل بعيداً، مخلفاً زكاماً وسعالاً.

يجبر على تناول زيت السمك السائل ، يسد أنفه يطفئ طعمه الكريه بالبرتقال اليافاوي.

شوربة الكشك «البحيتيره» تدفئهم. يتنافس مع أخوته على الاقتراب من المنقل، حبات الكستنا والدَوَّام تطقطق في المنقل.

تبدأ حكايا الشتاء.

العنزة أم القرون الذهبية

تذهب إلى البرية لإحضار الطعام لأولادها، الضبعة تراقب خروجها من المنزل، تخدع العنزات الصغيرات، تشرب زيتاً كي يلين صوتها، وتقلد صوت أمهن الغائبة، طالبة فتح الباب، يفتحن لها الباب فتأكلهن – وهنا تطفر الأعين بالدموع، الأطفال يصغون بكل مشاعرهم.

– لا تدعيها تأكلهن ياأمي

تتابع والدته:

ثم تأتي الأم فلا تجد صغارها، تبحث عن الضبعة وتنازلها، تبقر بطنها بقرنيها الذهبيين. تخرج العنزات الصغيرات سالمة.

تتوالى القصص الأخرى عن حديدان، والزير سالم وعنتر ة، والكثير من قصص ألف ليلة وليلة تؤلف، تحكى وتروى، مزدانة بالجديد.

لم يكن هناك كهرباء، والحياة بسيطة، ينام الجميع في غرفة واحدة.

الوالد على السرير والأم على فراش أرضي والبقية على فرش مجاورة للأم.

في بعض الصباحات يرون الأم في السرير إلى جانب الوالد، يتسارعون جمعياً إلى جوارهما، ستة أطفال وأم وأب، يتزاحمون يحاول كل واحد منهم الالتصاق بأحد الأبوين.

الوالد يعلم هم جدول الضرب ، وبعضاً من دروس الحياة بأمثلة من قصص يختارها.

أتدري لماذا كان الرشيد يحب ابنه المأمون أكثر من الأمين؟.

– لا.

هذا السؤال سألته ابنةً عمه ، زوجتُه السيدة زبيدة ، بلهجة العتاب ، فالأمين ابنها، لكن هارون الرشيد يفضل عليه المأمون أخاه ابن المرأة الفارسية.

بينما كانت تطرح عليه سؤالها عبر بائع ينادي على الفول، خارج باب القصر، فقال الرشيد للأمين اذهب وانظر ماذا يبيع الرجل؟ ذهب الأمين وعاد: إنه يبيع الفول يا أمير المؤمنين.

قال للمأمون: اذهب وأخبرنا ماذا يبيع.

سأل المأمون البائع بعد السلام ماذا تبيع ياأخا العرب؟

أجاب: الفول.

قال بكم ثمن ماتحمل؟

أجابة بخمس ليرات ذهبية.

ساومه على الثمن واشتراها بثلاث ليرات. ثم ذهب إلى سوق المدينة وباعها بـ عشر ليرات ذهبية.

عاد المأمون إلى والده ونفض الليرات الذهبية السبع وقال: هذا هو مايبيعه الرجل

نظر في عيني ابنة عمه زبيدة باسماً، في حين أطرقت عينيها بانكسار.

برد أمطار وصواعق، فحم ووحل ودفء وأمطار لا تنقطع لأيام

يقول والده:

الحمد لله يا رزاق.. انشاء الله موسم الزيتون يكون خيراً هذا العام.

السماء سوداء، والريح تعصف بالآذان والوجوه. يمضي يوم الجمعة في منزل المعلمة كريمة، فالدرس لم يحفظه في اليوم السابق، والعقوبة حرمان من العطلة يوم الجمعة، إنه ليس سجناً ذا قضبان، لكنَّ جلوس هـ في بيتها

يذكره بسجن الخوجاية البغيض، يقرأ ويكتب الدرس عشر مرات؛ ثم يُسمعه، لكنَّه سيبقى معاقباً حتى المساء.

رحلة ماجلان حول رأس الرجاء الصالح، لاكتشاف كروية الأرض، وعقوبة منذ الصباح إلى المساء، من أجل كروية الأرض، ورغم ذلك لم يشعر بالكراهية تجاه ماجلان الذي أعجب بمغامراته وجرأته.

عيناه تثقبان الكتاب، ترتعش شفتاه وهو يتمتم حروفه، يسمع وجيب قلبه، في الخارج رفاقه يلهون، وهو يحمل كتابه بيساره مقدماً لمعلمته الحساب.

السماء تنهمر أمطارها والليل يغزو النهار، قدماه «تشتيان». مياه المطر تنفذ من الحذاء، ألم في القدمين المثلجتين، يعود إلى المنزل، أمه لائبة تنتظر، صدرها يدفئه، يشم رائحتها، الزوفا الساخنة وشوربة الكشك، بعد قليل تشع الحرارة في الجسد والقدمين، ويبدأ العراك مع أخيه عبد الغفور، يدفعه يسقط على زجاجة صمغ، تنكسر تدخل شظية في فخده، يتدفق الدم، يستدعى أمين الحلاق، ليضع الدرور على الجرح يضغطه ويربطه بالشاش.

البحر صاخب من خلال شباك الشرفة المسماة «بالكزدريك».

«عبد البحر » يبرز من قلب الغيوم، عبد البحر هو الأشد إيذاءً للأطفال، فهو يصطحبهم إلى جبال البحر الغاضب، يدب الرعب في القلوب، وبه تهدد الأم شقاوتهم، بعد هدوء البحر تظهر هامة البحر وهي أليفة لاتؤذي.

الأمطار غزيرة والجو بارد، الرياح تعوي، تزمجر، تصفر، أصوات يألفها مع مرور الأيام.

في بعض الأحايين يجفو النوم عينيه، يقوم إلى الشباك يراقب الطبيعة الصاخبة، مهرجان ليلي، صواعق تنير السماء والبحر لبرهة، صوتها يرجفُ المنزل، يهتز «الكزدريك».

مهرجان أقواس قزح في النهار ، شمس تسطع رغم المطر، تقول والدته مبتسمةً: الآن يُعقد قران ابن آوى على ابنة آوى ، يفرح له، هذا الواوي الماكر ينتهز ظهور الشمس في سماء ماطرة كي يتزوج.

لا بد وأنه سيغزو أقنان الدجاج كي يأتي بدجاجة لزوجته الواوية الشقراء.

تقص عليه والدته قصة عن غضب الوالدين:

في مثل هذه الليلة غضبت أم شفيق من ابنها، وأطلقت دعاءها باتجاه السماء بأن يذهب بلا عودة لأنه عص ى أمرها ، خبط شفيق الباب وراءه وخرج.

بعد قليل عادوا به إلى البيت، قالوا لأمه ضربته الصاعقة فمات.

خرست الأم وفقدت نطقها وصارت طوال ما تبقى من حياتها تردد ثلاث كلمات:

الله، محمد، علي، الله محمد علي. ويقيت على هذه الحال سنوات إلى أن لحقت بذلك الذي أرسلته بدعوتها إلى السماء.

فاض نهر أبو علي وطاف مسيل الغمقة، غرقت البيوت المنخفضة، وأتى اللاجئون من لبنان، بعد أن غُمرت بيوتهم بالمياه، أمطرت السماء سبعة أيام، السيول غمرت المدينة، أغلقت المدارس طوال تلك المدة حتى هدأ المطر.

فرح للعطلة، سُمح له ولأخوته باللعب في الحارة المسقوفة ، أما النزول إلى الساحة فلقد حظر عليهم، والساحة أصبحت كالبحيرة، الطريق إلى البحر كنهر صاخب.

السحلب الدافئ يسكب من إنائه النحاسي ويرش عليه الزنجيل ، باعة الشوندر والفول المسلوق والترمس والبليلة ينادون على بضاعتهم.

خالته أم كمال تزورهم، ابتهجوا لزيارتها، فهي تحكي لهم بعضاً من حكايا الشتاء، بطريقة مشوقة. وطريقتها تختلف عن طريقة والدته بالقص، في كل يوم حكاية بعد العشاء ؛ حتى يحين موعد النوم ، وعندما تنتهي الحكايات تُعاد من جديد.

ومع ذلك فالشتاء يعني المدرسة المقيتة. ويعني السجن والبرد، تق يد الحرية، لكنه يعني الحكايا الشتوية والمطر وصخب البحر.

الصيف

اعتاد والده الذهاب إلى الأندروسة صيفاً منذ أيام شبابه، وهذه العادة لم يتخل عنها طوال حياته.

عندما يحل فصل الصيف تعم الفرحة الجميع، ففي الأندروسة سيتخلص من قمع الخوجاية ، وقيود المدرسة والمدينة، ويصبح كعصفور طليق.

أما والدته فلم تكن ترغب في الذهاب إلى الأندروسة ، وتفضل الذهاب إلى ريف لبنان، وهكذا يصطحبه والده مع أخويه إلى الاصطياف.

وفي الأندروسة شقاوة على هوى سني الطفولة، من اصطياد البهلوانات إلى اللعب مع جميل «النَوَري» واسمه الذي يعرف به «جاميلا» ويلاعب الكلب و يدخل خيام النَوَرْ وعالمهم البسيط وهم سعداء بابن الرجل الغريب المصطاف والمدعو الشيخ أبو وضاح.

نار الموقد مشتعلة ، تمرة صاحبة المنزل الذي يستضيفهم، تولم كل مساء لزوجها الآغا ، والآغا يصنع قهوة الصباح بيديه على الموقد ، وفي المساء سيطبخ العشاء على ذات الموقد.

تمرة البدينة المضيافة عاقر، كل الناس يعرفونها وينادونها بالعمة تمرة، ولما لم يكن في الأندروسة فندق ، فلقد صار بيت تمرة ملاذَ كل غريب، المرأة الهادئة الستينية ، قوية البنية تعمل بلا كلل ، اعتاد دعوتها بعمتي تمرة؛ ولزوجها: عمي الآغا. وهو لقب لا علاقة له بالآغوية الحقيقية، فهو رجل بسيط شهم كريم الخصال، ولقد لقبه أهل القرية بالآغا لكرمه واستقباله ضيوف القرية وعابري السبيل.

والآغا أعدَّ لهم غرفة تعتبر من الغرف القليلة في الأندروسة المسقوفة بالإسمنت، فمعظم البيوت والغرف مشادةٌ بالحجارة ومسقوفة بفروع الأغصان والطين.

غير بعيد عن المنزل أرض تدعى «الفكة»، فيها مزروعات بسيطة، قليل من كل ما يخطر في البال ، تسد احتياجات المنزل : الخيار، البندورة،البقدونس، النعناع، الخس، القرنبيط، الفليفلة، البامياء والفاصوليا....

سلطة الخضار تزين طاولة العشاء اليومية، الآغا يفضل تناول السلطة طازجة، بطاطا مقلية وأي صحن آخر من «الدجن»، وفي بعض الأحيان يحضر الفروج للعشاء مع كأس العرق، الطقس اليومي الأبدي.

وهذا الكأس يتسبب بمعركة بين والده وبين الآغا ، فوالده يقول له : ستدخل النار بسبب هذا العرق، ألا تعرف أنه محرم؟

وتبدأ قصص التحريم وعدم التحريم والمائدة بينهما. الآغا يضحك ، ووالده يضحك وكلاهما يستمر في المناكدة إلى أن يتغير الحديث.

يعبر بهم صياد من توروزا يلقبونه «بعوكس» وله انتفاخ في رقبته ككرة مطاطية صغيرة ، وعندما تعرف عليه، تذكر قصة الغزال الصغير، وشعر بالكره لهذا الرجل القاتل. وعوكس هذا مصاب بنوبات من الضراط المستمر، لا تهدأ تلك النوبات إلا عندما ينام ، فمع كل كلمة يتحدث بها يرتفع صوت فرقعة تدوي وضحكات تصدح، هو ضيق الصدر، لايتحمل مزاح البشر ، وإذا استمرت السخرية حوله ، يبدأ بالصراخ والشتائم وتزداد وتيرة الفرقعة مع ازدياد عصبيته ، ويبدأ الناس بالهروب من وجهه ويصرخ أحدهم:

– يجب أن يأخذوك إلى الجبهة يا عم عوكس.

ويرد:

- لعنة الله عليك، على آبائك وعلى جبهاتك الأربع.

*****

الزوار يتهافتون لزيارة الأندروسة، من القدموس ومصياف وسلمية، من قرى مجاورة وقرى بعيدة، يقدمون دبكات مشهورة تميز كل مجموعة زائرة.

حلقة شبان وصبايا مع طبل وإيقاع وزمر. نذورٌ تذبح للشيخ الولي مقابل شفاء، أو طلب حمل أو وفاء لعهد. الجعائل ضخمة تتسع لثور، الناس يقيمون يوماً وربما يومين أو ثلاثة من الأفراح المتواصلة ، غناء ودبكة، وقصص لصبايا في أبهى حلل، شبان يقتربون من الصبايا يغنون،تتشابك الأيدي وتتلامس الأذرع، ويزداد وجيب القلوب، وتنسج قصص عشق للقادم من الأيام.

يرافق الأغاني عزف الناي والمجوز، طبل وإيقاع متناغم لموسيقى لا أحد يعرف متى ابتدأت، يقول القدامى أنها موروثة منذ القدم، يرجعها بعضهم إلى مواسم الحصاد الأولى، طقوس يوقنون أنها استمرت عبر الأجيال.

الدبكة أتاحت له الفرصة الأولى في حياته للإمساك بيد أنثى، رغم إحساسه أن الإمساك يبدو عفوياً، عدنان أخذ بيده إلى الدبكة، أحس بيد الفتاة حياديةً وهو لم يتجرأ أن يضغط أصابعها بيده، داخله مبهم وحركاته مقيدة، بعد قليل أطلق لنفسه العنان. وصارت خطواته أكثر تحرراً، أحس بجسده يمّحي ويتشكل، أحست الفتاة بحركاته فانساب جسدها معه في إيقاع متناغم، ورغم أنها المرة الأولى التي يمسك بها يد فتاة لا يعرفها، لكن الرعشة التي أحس بها كسريان الكهرباء في جسده جعلته يشعر بأنها اللحظات الأكثر ألقاً في حياته.

سلمان الاعمى

يسير في الساقية، يصرخ ويلعن، قدماه تخبطان الماء ؛ وكأنه آت من زمن سحيق، سيهدأ بعد قليل، ثم يسير باتجاه النبع ، منبهاً عن حضوره، يغسل يديه بصابونة يخرجها من جيبه، يتبعه وضاح مع رفاقه بهدوء، يغسل رأسه ووجهه جيداً ، ضارباً الماء بكفيه بحركات سريعة، ينقلها إلى وجهه، ثم رافعاً رأسه نحو السماء، يرفع أذنيه لحركة بعيدة يترصدها ، أذناه تدوران، تلتقطان الهمس والحركة ، مستنفر لأية حركة قد تصدر عن الأطفال، يشم أماكن تواجدهم يتحدث ببعض الكلمات:

– من هناك؟

لا إجابة.

وبعد قليل تبدأ المناكدة، يصرخ أحدهم:

– الرب عادل يا سلمان.

وينزل غضب الرب من فم سلمان : «أبوك أمك عيلتك »، تلوح عصاه دائرة كاملة ثم يبدأ بالقفز والضرب والتحرك ، الحجارة في جيوبه يتناولها حتى تنتهي رماياته . العدل الإلهي يغضبه لبصره المفقود ، يرجم السماء بحجارته وشتائمه؛ سماء حرمته من تلك النعمة، ويلعن البشر الشامتين

سلمان في لحظات هدوئه طيب ، فإذا ما ألقيت عليه تحية الصباح فسوف يرد ، ويستعلم عن أهلك ويبدأ حواراً ، وإذا ما صادف طفلاً هادئاً ؛ يهدهده ويداعبه، طاهر شعبان طفل مميز يَعُدُّه كابنه الذي لم يأت ، يحتفظ له بالجوز ويعطيه النقود، ورغم أن طاهر لا تربطه علاقة قرابة م ع سلمان الأعمى ؛ إلا أنه الوحيد القادر على تهدئته ، عيناه المفقودتان تشرقان بابتسامة لمجرد سماع صوته، يدلعه فيسميه طاهر باشا ، ولا أحد يدري ما السبب الذي جعله يخصّ طاهر بتلك العاطفة.

سلمان يمشي في ساقية الماء طريقه الوحيدة في كل الفصول ، وهو يعرف إلى أين تقوده، وعندما تنتهي الساقية في مكان يعرف تتمة الطريق إليها من جديد.

ولدت في عالم زائف
مشيت وحيداً أطلقت العنان
السماء سوداء، والرؤية سوداء
عيناي مفتوحتان على الظلام
أعرش كابوساً إثر كابوس
وحلماً إثر حلم
النهار فاصلة العدم
و توأم الليل
أمضي في طريقي
أسير فوق الخطايا
قلبي منهك
يطاردني الأطفال والأشباح والرياح.
الليل كالنهار والنهار كالظلام
وجسدي مشظى ومستباح
أمضي إلى الخطايا
أشرب من جرارها
وأستريح في نهاية المطاف.

يقال أن امرأة غجرية اسمها وزيرة تأتي مع النور كل عام وسليمان يختفي في خيام الغجر إلى أن يرحلوا. وبعد رحيلهم يعود سليمان وحيداً. وإذا ما سئل عن وزيرة تنفرج أساريره وتتندى شفتاه، ولكنه لم يكن يتحدث عنها أبداً.

عدنان الصديق الصغير

عدنان يقيم في منزل عمه الآغا ، هو الوحيد الذي ينادي تمرة بستي، وهي تناديه بولدي وأحياناً (بميمتي) ، عدنان فتى ماهر في استعمال مطاطة الصيد «النقيفة»، فما أن يضع الحجر في جلدتها ويطلقها حتى تطير إلى العصفور فيسقط صريعاً.

والآغا له عين متحركة وعين جامدة ، في المساء يأخذ عينه الجامدة (الزجاجية)، ويضعها في كأس ماء، وفي الصباح يفتح مسكن العين ليضع الزجاجة فيه.

لأول مرة يكتشف وضاح وجود عين زجاجية ، اعتقد أنَّ لهذه العين وظيفة نقل الرؤية بعد وضعها في مستقرها ، ذات مرة تناولها من كأس الماء، وقلَّبها بين أصابعه كي يتعرف على أسرارها، لكنها بقيت لغزاً مجهولاً، بصر والده الشحيح جعل الطفل يتساءل لماذا لا يستعين أبوه بواحدة من تلك العيون.

في ظل شجرة الجوز القابعة وسط الرابية ؛ منتصف الطريق بين المزار ومنزل الآغا، يجلس والده وباقي أصحابه من أهل الأندروسة، كرسي هزاز مصنوع من قماش وساقية ماء . رجال أنهوا أعمالهم ، قدموا ليلقوا التحية على الشيخ أبو وضاح، الذين أصروا على منحه هذا اللقب، مع أن صَلاته كانت متقطعة ؛ لكن هؤلاء الناس يحبونه لمعرفة قديمة وطويلة، لرجل مديني أحب أهل القرية وأحبوه.

العمة تمرة تصرخ:

- يا عدنان.

يُهرع عدنان

- نعم يا ستي.

- «بيِّت الجيجات يا عين ستك».

- ويهرع عدنان و وضاح إلى الدجاج ، يفتحان أذرعهما، وهما يرددان بَاتْ بَاتْ، إلى أن تدخل القن ، يُغلقان بابه الخشبي، وسؤال يطرحه أمام عدنان:

أيمكن للجقل أن يفتحه؟ يسمع الآغا سؤاله فيجيب:

- الجقل الجقل..؟ لا ؛ أما الجقل الآدمي فنعم.

تمرة تخبز على التنور يسح العرق من جبينها ووجهها، تتورد وجنتاها.

تضع الخبز المرقوق على قطعة قماش تلبسها في يدها، تدخل يدها في التنور ، وتلصق الخبز على جداره الطيني بسرعة وبحركة تمنع يدها من الاحتراق، النار المحمرة تنضج الرغيف، تهب رائحة خبز التنور عبقة في الأمكنة، كل عابر سبيل يمنح رغيفاً ساخناً إن اقترب، هذه هي العادة.

يحمر خد الرغيف وتمنحهما رغيفاً يتقاسماه

- «ياميمتي ما تأكلوا كل الرغيف ماعاد فيكم تتعشوا بتنزعوا عشاتكم».

مع هدوء الليل وصفاء السماء تصطف النجوم على مستويات ، لأول مرة يسمع أسماء الدب الأكبر والأصغر ونجم الثريا والمشتري..

سماء ونجوم

أبو يوسف علي جديد زار الآغا في ليلة مقمرة ، رآه وضاح يراقب السماء مطولاً وكأنه مستغرق في صلاة. بغتة التفت إلى وضاح:

– أتدري ما اسم هذا الكوكب؟

يهز رأسه:

– لا، كل ما أعرفه القمر وهذه النجمة ابنة عمه.

ابتسم وقال:

– تعال، سأخبرك، هذا هو المشتري، بعد الغروب سترى كوكباً آخر في الغرب. انظر إلى هذه المجموعة فوقنا، إنها الثريا. وهناك يقبع برج الثور.

وتلك المجموعة تشبه المقلاة وهناك الدب الأصغر. هل ترى تلك السحابة التي تبدو كالغيوم البعيدة؟

هزَّ وضاح رأسه إيجاباً

– إنها درب التبانة، يهتدي بها التبانة في الطريق إلى قراهم، كما يهتدي بها المسافر في الصحراء كي يعرف اتجاهه بعد غروب الشمس.

– وكيف تعرف كل ذلك؟

– ابتسم وقال أنا متصوف أتأمل السماء والنجوم وأقرأ في كتب علوم الفلك.

المتصوف علي جديد شدَّه ،وصار يتأمل النجوم ، ولعل ذخيرته عن السماء ومواقع النجوم لم تزد كثيرا عما أخبره، لكنها حدثت كفتح جديد في حياته، وأدخلته في حيرة كبيرة، كم رغب بالتعرف إلى أسماء النجوم والأبراج، قرأ في القادم من الأيام الكثير من الكتب حول الكواكب والنجوم، لكنَّه لم يتمكن من مطابقة قراءاته على أبراج السماء، وبقيت رؤيته لسماء

الليل منطلقة من النقاط التي أخبره بها الزاهد العابر ، يتأملها و يحاول استظهارها بين الحين والحين.

وقبل أن يغادرهم قال أتدري ما اسم الكوكب الشديد السطوع الذي يظهر غرباً بعد الغروب؟

لن أدعك تفكر طويلاً إنه كوكب الجمال «كوكب الزهرة».

انطلق علي الزاهد وترك له دهشته وحيرته ،ومزيداً من الأسئلة المعلقة في الفراغ ، هذا العالم الكبير فوقه، والذي يسمى الكون. خلق سيلاً من الأسئلة، أسئلة تنهال عليه من خلال فسحة كبيرة، تنفتح أمام عينيه . قبة كروية يبدو العالم من خلالها أكثر غموضاً، تسميات ورموز و أبراج، واقع غرائبي محير؛ جعله يشعر أنه أشبه بذرة غبار في متاهات الكون.

«لماذا كل هذه الكواكب والنجوم» يسأله الصوت من الداخل؟ لماذا؟.

يجفل من السؤال... لاأدري!

أسئلة تبدأ ولا تنتهي في رحلة قصيرة، جعلته في القادم من الأيام يتساءل، أتراها عبثٌ، أم أن هناك أشياء كثيرة لا يمكن إدراكها، وهل تمكن هذا الصوفي من إدراك بعض من هذه الطلاسم العجيبة.

شرد طويلاً وهو يسترجع حديث النجوم والسماء والكواكب، تساءل عن المقدس وراءها، لأول مرة يسمع بكلمة زاهد.

صور قديمة تستيقظ؛ هل لدرب التبانة علاقة بالصراط المستقيم؟

درب يشبه التنين غيوم مضاءة ونجوم، عالم سري يتحدث عنه رجلٌ يحمل سبحةً يتمتم وهو يمرر حباتها بين أصابعه ، يرمق الآخرين بعينين واسعتين.

أتراه مدعٍ للمعرفة كالخوجاية التي ترسم عوالم أخرى؟

لأول مرة يسمع بالتأمل ومحاولة اكتشاف ذلك العالم، يلتقي برجل يتحدث عن معرفته بالسماء، بالكواكب والنجوم والأبراج، يتحدث لغة غريبة

عن المواقيت والساعات والحوادث، كلمات لم يسمع بها من قبل . يتحدث بلغة الواثق من نفسه عبارات بسيطة تمتزج بكلمات غريبة.

ثم يقرأ بعض الأيات.

«والسماء ذات البروج » يبتسم بعض الحضور، يصمت البعض الآخر ، يؤشر بيديه معدداً الأبراج، ويتحدث عن السموات وطبقاتها.

يرفع وضاح نظره إلى السماء مح دقاً في عتمة الكون، الزاهد يرسم أذرعاً وممالك يرتفع بها إلى الفضاء.

لم يكد ينهي كلامه حتى دب الصمت، انسحب بهدوء، لم يتجرأ أحد على السخرية منه بعد رحيله.

نظر وضاح إلى السماء مجدداً، تأمل الكواكب والنجوم الأكثر سطوعاً. استرجع في ذاكرته أسماءً جديدة: الزهرة، المشتري، المريخ، الثريا، برج الثور، درب التبانة وشهب تتساقط، كسوف وخسوف وحروب، وناسك يقولون عنه الزاهد المتصوف، ورهبة حلت في المكان بعد رحيله؛ لكنها أثارت المزيد من الأسئلة في العقل الصغير.

ولكن الغريب في الأمر أن طلعت عليهم زهرة.

امرأة من سراب
ترقص على مرايا الجن
تزور غرفة سرية
تلتقى أيامى وأولياء
....

تسرج عريها
تجدل شعرها

تضع على وجهها قمراَ

وتمضي في الخفاء

زهرة

عندما أتت زهرة أحدثت انقلاباً في حياتهم.

زهرة ابنة أخت تمرة ، تقيم في لبنان هي في الثلاثين من عمرها، كقمر متوهج أشاعت جواً مختلفاً في المكان ، زوجها شيخ في السبعين من عمره، يأتي يومين من كل أسبوع ، وتبقى زهرة مع هم. صارت عمتهـ زهرة هي التي تطبخ، صوتها لبناني يحمل نغمة مختلفة، تزداد روع ة في الليل وهي تغني لفيروز ولنجاح سلام، عندما يصدح صوتها ينصت الجميع ، والدهـ يطرب لصوتها، البسمة تشع على محياه وحتى عيناه الشحيحت ا البصر تبرقان وإمارات الرضى والاستحسان تتوجان ملامح وجهه.

أما الطبخ فقد أصبح متقناً بعد أن دخلت الطرق اللبنانية في التحضير، وما دامت زهرة ستطبخ، فالعشاء صار مميزاً، لايخلو من لحم أو «فَرّوج».

بعد سنوات عندما وصل وضاح عتبة النضج وأخذ الزغب يظهر على وجههـ وتحت إبطه، دخل غرفة المؤونة لجلب بعض الأرز، سمع أصواتاً تأتي من شباك يصل غرفة المؤونة بالحمام، تمرة تُحمم زهرة، تسكب عليها الماء.

أغمض عينيهـ وأحس بوهج النار في وجهه، جسدٌ أنثويٌ بكل عريه أمام ناظريه، إنها المرة الأولى بعد ظهور شعرات متفرقة في ذقنه، وتحت إبطه، ومنعه من مرافقة والدته إلى حمام السوق.

بعد قليل يسترق النظر من بين أصابع هـ غرفة المؤونة تقبع في الظلمة، والحمام منار بنوافذ علوية تصله بالخارج، ابتعد عن الشباك وانتبه إلى كيفية صب الماء على جسد زهرة، ترتسم على وجه تمرة بسمة رضى، وهي تقوم بعمل أشبه بطقس، الاستحياء يعلو ملامح زهرة، خدان مضرجان

بالحمرة، رأى تفاصيل مدهشة ، لكنَّهلم يتمكن من المكوث لفترة أطول ، تصعدت الحرارة في جسده، تقاليد تربية محافظة تصطخب في رأسه النار والجنة والصراط المستقيم ؛ يتحول إلى شعرة الخوجاية تتمدد فوق نهر النار، وهذا العمل الآثم الذي ارتكبه بالنظر إليها!

– ماذا لو داهمني أحد؟...

خرج مرتبكاً محمر الوجه ، وأشواك تخز ذاكرته ،صور تضج معربدة في رأسه في تلك الليلة شعر بالخجل، ولم يتجرأ النظر إلى وجه زهرة الأليف ، ولا إلى الشامة الكبيرة التي تعلو محيّاها ، والتي كثيراً ماطاب له التمعن بها، وهو يحسب أنها تجعل العيون تنجذب لتسقط على وجهها، امتلكته خشية ما، ربما اكتشفت أنهكان هناك، تبدت لهزهرة في تلك الليلة كأروع ماتكون الأنثى، تلك الليلة شكلت تبدلاً في حياته،وتلهفاً لاكتشاف المزيد من هذا العالم الأنثوي المجهول ، مشاعر متناقضة تؤرجحه صورة لجسد بضٍ يتساقط عليه الماء ، حبيبات من الماء ملتصقة عليه، نار تستعر في داخله في تلك الليلة لم ينم حتى الصباح، أتاه الحلم مختلفاً، ولم تكن زهرة رفيقة الحلم ، بل فتاة أخرى ، لها وجه مبهم متبدل ، وجسد كتلك الفتيات التي يراهن في الأفلام الغربية. يصب الماء على الجسد الأنثوي ، يختلط الوجه بزهرة ، يتبين وجهها ، والغنج الذي تزهو به، وفي تلك الليلة تنامى الصراع داخله، بين الخطيئة والفضيلة، في لحظة طلب الصفح من زهرة ومن الإله، وفي لحظة أخرى تمنى ألا يكون ما ارتكبه إثماً ، حاول التبرير لنفسه، فالأمر مصادفة، وهو لم يسع إليه، وفي لحظات تالية يقول حتى ولو كان الأمر خطيئة فما أجملها، وتساءل لماذا الجميل الذي يبهج النفس ويحرك المشاعر هو الخطيئة؟ وبينما يرى خيطاً دقيقاً كشعرة ، يفصل بين المحرم والمقدس، أحسَّ بأنَّهلم يحسم أمره بعد ، إحساس مبهم يُعرش في ذاكرته بينما يسترجع صورة الجسد المتلألئ ، والماء المنسكب بين

النهدين، تلك الصورة التي لازمت هزمناً طويلاً و هو يكتشف جسداً أنثوياً ، بقي يطوف في مخيلت هلسنين طويلة ، يستحضره في اللحظات السرية، مراهقاً وعلى عتبات الشباب. النار تلتهب في صدره ألم يضغط عليه، سماء وردية، جسد من بلور، يداه تلتهبان، جسده يتندى عرقاً، تتصاعد الحمى ،رغبة متأججة، أحشاؤه تضطرم، يشتهي المحرم، ريح تعصف داخله. يشعر بأنه أضحى على أبواب الانهيار.

عندما علمت أم وضاح بوجود زهرة صعدت إلى الأندروسة ومكثت مع زوجها وأولادها، مقتلعة فكرة لبنان والمصايف الحضارية الراقية من ذهنها، شيء ما له علاقة بالغيرة الأنثوية، التي تضخمت وهي بعيدة ؛ ولكن سرعان ما أصبحت صديقة عزيزة لزهرة.

هي تدرك جيداً أنَّ علاقة ما لا يمكن أن تقوم بين زوجها وبين زهرة؛ لكنَّها مع ذلك وبدافع الغريزة الأنثوية والخشية من المجهول ، آثرت أن تكم الأفواه التي بدأت تطلق الشائعات ، وأن تبقى مع زوجها حفاظاً على مكانتها، و عمدت في كثير من الأحيان إلى م مازحته ،وهي تغمز له بكلمات، وكيف أنه تحوّل إلى حاتم الطائي بفضل هذه الزهرة اللبنانية الفاتنة.

تكرر حمام زهرة عدة مرات ، وما كان خوفاً من السماء في المرة الأولى صار رغبة إلى التعرف في المرات التالية ، يجلس لبرهة مراقباً طقساً غريباً، تمرة تصب الماء بحنان على جسد زهرة ، تفرك ظهرها العاجي ، تعاملها كطفلة تمسدها برفق ، وفي عينيها بريق إعجاب وزهرة مسترخية مغمضة العينين وسعيدة.

دقائق قليلة و يخرج من المشهد ، وبعد مرات قليلة لم يعد المشهد يعني له شيئاً وما عاد يدخل غرفة المؤونة أثناء حمام زهرة.

****

ينتهي الصيف مسرعاً ويحمل وضاح في جعبته ذكريات الدبكة التي ترافق أعراس الريف وزوار الأندروسة، صياح الديكة وعواء الواوي ونباح الكلاب، يحمل في ذاكرته عدنان والفكة والآغا ، جاميلا الغجري وخيام الغجر، تمرة وزهرة المرأة الندية الطيبة، واكتشاف الجسد الأنثوي، بداية التعرف إلى حقيقة الاختلاف بين الذكر والأنثى ؛ كلها تمضي مسرعة وتحين العودة إلى توروزا ومعها ستنتهي أيام الحرية، المدرسة على الأبواب، يعلم وضاح أن دعوة للنزال تنتظره عقب نزوله إلى المدينة ، دعوة إلى تقييم القوة ووضعها على المحك ، الصراع بين الأنداد لتحديد الألقاب وفق الأعمار، احتلال المركز الأول بعد النزول من الأندروسة ، هذا المركز لم يكن ليدم طويلاً، فبنيته القوية التي اكتسبها صيفاً ستعود لتضعف بعد دخول المدرسة، وسينتزع اللقب من هسمير رفاعية رفيق في مثل عمره بنيته قوية جريء مقدام، يطلبه للمغالبة، وينتزع اللقب لنفسه من جديد.

سوف يباغته سمير:

- وضّاح أنت الآن ديك الساحة سأنازلك على اللقب.

يجتمع الأطفال ولا يمكن لوضاح رفض التحدي، ويسائل نفسه: أما تزال القوة التي اكتسبتها من الأندروسة باقية؟

وتبدأ معركة المغالبة، وتدوم طويلاً في أكثر الأحيان يدور كل منهما حول الآخر، العينان تحدقان في العينين، يتماسكان بالأيدي ويحاول كل منهما رمي الآخر على الأرض ثم تثبيته إلى أن يستسلم، وباستثناء الحالات النادرة كان سمير هو الذي يفوز.

ما يحز في نفسه أن سمير لم يعش طويلاً ، وعندما صار في الرابعة عشرة من عمره توفي بمرض في القلب ، كما مات عدنان رفيق الأندروسة بذات المرض، عندما أصبح في العشرين من عمره ، وهكذا خسر صديقين حميمين من أصدقاء الطفولة.

وضاح وسمير رفيقان لايفترقان؛ رغم ما بينهما من معارك. قد تبدأ في أي لحظة بعد انتهاء الشهر، لكن هما يتعاركان يومياً بدون لقب (مغالبة مزاح)، كنوع من التدريب على المصارعة التي أخذت تشيع في تلك الأيام.

ولكن للساحة منطقاً آخر وأبطالاً كثيرين، ديكة تتنافس على الألقاب تارة، وتارة لإظهار القوة، وكان الأكثر شراسة غزوان عشير وحسن الأقرع.

غزوان عشير والده فرام تبغ، وهو الوحيد الذي يتناول العرق في الساحة عنوة، لسانه سليط، يسوط غزوان كل يوم، ويجلد كل أفراد أسرته بعد السكر. ولقد اعتاد غزوان على تحمل العقوبات اليومية، لكنه أصبح شرساً يحسب الجميع له ألف حساب.

وتبدأ المعركة بين غزوان وخصمه حسن الأقرع الملقب بأبي علي على المركز الأول لعمريهما؛ أبو علي مشهور بقوة رأسه، وغزوان بقوة جسده وصبره. يتواجه الخصمان ويتكتف كل منهما أمام الآخر، العيون تحدق ببعضها، محاولة لبث الرعب، كل واحد يرسل نظرات متقدة للآخر، الناس تلتف حولهما لمراقبة النزال الأكثر عنفا في الساحة، يحاول كل منهما ضرب الآخر بيده خلسة كالقطة التي تهاجم الأفعى، ثم إعادة اليد إلى مكانها على الصدر من جديد.

تبدأ المعركة بينهما في الصباح وتستمر حتى غروب الشمس، ثم يتفرقان، وقد أدمى كل واحد منهما الآخر، وتستمر المنازلة ثلاثة أيام، صامتان أثناء المنازلة، يتقدم أحدهما ويتراجع الآخر، ضربة من كل واحد، وقد تتلى بضربات، لكنها لايشتبكان جسدياً أبداً، وإذا ما تمكن أبوعلي خلال عراكهما من نطح رأس غزوان، فستحسم المعركة لصالحه، وإذا ماتمكن غزوان من إيصال ضربة قوية على أنف أبو علي فقد يسقط، وإلا فالمعركة مستمرة حتى مغيب شمس اليوم الثالث، حيث يتدخل رجال الساحة لإنهاء النزال، مصالحين الخصمين، ومؤجلين النزال إلى العام

القادم، عيون مكدومة مزرقة، وجهان مجرحان متورمان، يتململ كل منهما من إيقاف المنازلة ؛ لكن احترام الكبار أمر لامناص عنه.

الديك

قبل مغادرة الأندروسة إلى توروزا ذلك العام، أتى ابراهيم وسوف مودعاً، وقال لوضاح:

- عندي ديك شقي أريد أن أقدمه هدية لك.

صمت وبانت تكشيرته التي تخفي خلفها مكيدة صغيرة:

لكن عليك الانتباه يا وضّاح لأنه لعين ، ومن فصيلة الجان والشياطين، انفرجت شفتاه عن ضحكة معربدة، ارتجفت ذقنه وتراقص شارباه وهو يبتسم، رافعاً يديه راسماً مسار كلماته في الهواء:

سوف يعلمك هذا الديك الركض والقتال والقفز بالهواء وتسلق الجدران، وربما محاولة الطيران، لكن انتبه إنه موذٍ إذا عذبك كثيراً «اكرزه» (اذبحه) أشار بيده ممثلا عملية الذبح.

ديكٌ مربوط الساقين، صغير الحجم، أجنحته ملونة بزخارف كثيرة يغلب عليها اللون الترابي والأحمر الغامق والزيتي، وقال ابراهيم:

فكرتُ في قص جناحيه لكنني تركت الأمر لك، إذا أتعبك بداية ، قص جناحيه والذيل.

عرف وضاح ابراهيم وسوف مازحاً، لكنَّه لم يعر الموضوع أهمية كبرى، وافترض أنها واحدة من مبالغ اته المعتادة، في المرة السابقة أحضر ل ه بولادة و(صوفينية) وحجر صوان، وضع الصوفنية على حجر الصوان، ثم ضربها بـ(البولادة) فومضت شرارة أشعلت الصوفينية، قال والبسمة ترسم شفتيه وتوهج يتألق من عينيه، كالشرر المتصاعد من البولادة: هذه النار

موروثة من جدي، وجد جدي إلى يوم عبدة النار. خذها هذه من عمك ابراهيم وسوف....

سأله وضاح: من هم عبدة النار؟

قال: سمعت أنهم من بلاد الفرس قبل الإسلام؛ لكنني لاأعرف عنهم أكثر، لاتسألني لماذا عبدوها؟ فأنا لاأعرف لكنني أحب النار ، وأحب رائحة الشواء، ورائحة الصوفينية المشتعلة.

أدهشه صوت البولادة على حجر الصوان، واشتعال الصوفينية، والشرار ، واحتفظ بها سنوات طويلة، تذكره بالرجل الناري الذي يملأ الدنيا صراخاً ومزاحاً عندما يزورهم، إلى جانب المفاجأات السارة الغريبة التي يحضرها معه. يقدمها وكأنه يقدم فصلا مسرحياً في غاية الاتقان.

في توروزا أطلق وضاح سراح الديك وباقي الدجاجات في غرفة الحطب، رش لها بعض الحبوب، ثم أغلق الباب.

في صباح اليوم التالي رأى الغرفة مضطربة، الدجاجات تصيح، وبقية الديكة مترنحة بعضها على حافة الموت، والديك المتلبس بالجان متربع على ذروة الحطب. أما الدجاجات الأناث فلم تُمس ، ويظهر أنها أظهرت حيادها خلال معركة الديكة، ماعدا مشاركتها بالصراخ، ثم هدأت بعد انحسار القتال.

قال والده: خذ الديكة للذبح، واترك اللعين مع الدجاجات. مضت أيام والحركة طبيعية بعد أن خلا الجو للديك الجديد، وذات يوم فتح أبو وضاح الباب؛ ليلقي ببعض الزوان ، فاجأه الديك بهجوم شرس ، انقض عليه طائراً ونقر جبينه فأدماه.

أغلق والده الباب، حائراً في أمره، لم يأمر بذبحه، لعلّه أعجب بقوته وتمرده؛ لكنَّه أضمر له أمراً.

قال: خذه إلى عمك أبو العز، وضعه مع دجاجاته فديكه الكبير سيطّوعه، ويجعله قليل الحركة. فتح وضّاح الباب حذراً، انطلق الديك باتجاهه تفادى هجومه، ورآه يطير مغادراً غرفة الحطب، حط على جدار القلعة. الدهشة تعلو وجهه، إنها المرة الأولى التي يرى فيها ديكاً طائراً لمسافة تعلو بهذ القدر ! رماه بالحجارة فطار ثانية ليحط على الأرض. ركض وراءه، وابتدأت رحلة المطاردة، الديك يركض ثم يطير، ثم يحط على الأرض، حاول الأطفال مساعدته ؛لكنّه أسرع إلى البرج، ثم خرج خارج سور المدينة القديمة إلى موقع يدعى الخريطة في حي الخراب، وهو موقع المنازل التي هدمها الفرنسيون لتوسيع المدينة فيما زعموا، ثم إلى مدرسة الراهبات، وكنيسة القديسة العذراء.

تابع مطاردته، ألقى بنفسه فوقه، في ذات اللحظة قفز في الهواء، مفلتاً من يديه تذكر كلمات ابراهيم وسوف (سيعلمك هذا الديك القفز وربما الطيران انتبه منه يا وضّاح فهو ديك لعين).

اتجه إلى المنشية، ثم إلى الصالحية، وأخيراً هدَّ التعب كليهما، حصره في زاوية من جدار الصالحية، وقف يتأمله لعله كان يفكر بالقفز عليه أو لعله قال: انتهت اللعبة هيَّا احملني، ومع ذلك فاجأه ، اقترب بهدوء، قفز عليه مباغتاً، أمسك بجناحيه بيد، ورأسه بيده الأخرى، احتضنه وعاد به بثياب ممزقة متسخة.

عند عودته إلى الساحة رأى عيوناً ضاحكة ترمقه،محتضناً ذلك الجني الصغير.

هو يعلم المصير الذي ينتظره، تارة يحقد عليه وأخرى يتعاطف معه، أدرك والدهبعض ما يفكر به، وقال:

لافائدة حتى ولو قصصت جناحيه، فلن يهدأ، لابد من ذبحه.

حزن يشع من العينين وصوت محزون جعل الوالد يقول: سأمنحه فرصة أخيرة ربما قد تنفع معه. خذه إلى أبي العز.

دجاجات أبو العز مشهود لها بالضخامة والجمال ، وزن ديكه الأبيض ثلاثة عشر كيلوغراماً، يمشي بعظمة حتى لُقب بنابليون، قبيل الغروب يبدأ الاستعراض اليومي لدجاجات أبو العز، حيث تعبر الساحة، يتقدمها الديك الكبير في الطريق إلى البحر للمبيت في القبو البحري الذي كان فيما مضى غرفة الحراسة للفرسان الإفرنجة.

أخبر أبا العز بأن ديك هم الشرس جرح والد ه،ويريد أن يضعه بين دجاجاته، ربما ينال بعض التربية، وتنكسر عينه.

ضحك أبو العز، ألق اه بين دجاجاته، فاستقبله ديك أبو العز الكبير ونقره، وانزوى الديك الشرير وغادر وضّاح المكان.

في اليوم التالي أتى أبوالعز صباحاً يطرق بابهم، وهو يلعن أبو الديك الجني الذي كاد يقضي على ديكه، وقال لقد فوضت نفسي وذبحته ياأبا وضاح فهو من فصيلة الجان.

آلم وضاح مصير ديكه الجني . انتبه أبو العز لتأثر هوقال: سأعطيك الديك الثاني فهو عاقل وملون، أعتقد أنك تحب الألوان، ثم غمز ل هوهو يقول: أنت تعلم أن الدجاجات بحاجة دوماً إلى قائد، وهذا القائد عاقل لكنه لن يسمح لأحد بأذية دجاجاته.

الراهبات

تعبر الأيام سراعاً.. احتفال بختمة جزء محمد، يُقرأ المولد، وتوزع حلوى الاحتفال بانتهاء مرحلة الخوجاية، ثم الانتقال إلى مدرسة الراهبات.

خاله أبو علي تاجر قماش كريم فيما يسمع، علاقة ما تربطه مع الراهبات، يقال إنه أعطاهم أرضاً لبناء المدرسة، وابنه فاروق في المدرسة منذ زمن، وفاروق في مثل عمر وضاح لكنه أدخل الراهبات بدل الخوجاية، وهو متفوقٌ باللغة الفرنسية.

مضى برفقة خاله وأمه إلى مدرسة الراهبات، احتفت بهم راهبات القلبين الأقدسين، ابن خاله يجلس في المقعد الأول، ورآه فيما بعد محاطاً بالاهتمام مدة العام التي أمضاها في مدرسة الراهبات، هو الوحيد الذي لم يعاقب بين التلاميذ، ويشعر بالزهو لهذه المعاملة المميزة.

أسلمته والدته إلى المعلمة جهينة، رافقتهم السورسورابيا مديرة دير الراهبات من الإدارة إلى الصف ، هبَّ الطلاب واقفين وردوا على التحية بصورة جماعية:

– صباح الخير يا سورسورابيا.

قالت:

– هذا التلميذ الجديد وضّاح سيكون معكم.

جلس إلى جانب ساميا، كانت فتاة تملك خدين حمراوين كالتفاح.

المعلمة جهينة، تتحدث العربية بلكنة فرنسية، قصيرة، دقيقة الملامح ونحيلة، وهي أكثر جمالاً من الخوجاية ؛ لكن صوتها المرتفع لا يختلف كثيراً سوى أنه حاد، وهى لا تحمل عود الرمان لتأديبهم، بل عصاً لها أربع

زوايا قائمة ناعمة ملساء كمتوازي المستطيلات، مصقولة يبرق دهانها الأسود كما تبرق دموعه عندما تنهال على أصابعه.

أوكلت المعلمة جهينة المسؤولية إلى ساميا للانتباه إلى كتابته وتعليمهما نقص من واجباته رأى تميز الجميع باللغة الفرنسية عنه فمعظمهم قد أمضى سنتين في المدرسة قبل وصوله ، وصار يردد معهم الأغنيات الفرنسية دون معرفة بمعاني كلماتها، ورغم تميزه بالقراءة العربية، إلا أن ذلك لم يعفه من أنواع العقوبات كافة، فالجميع متفوق عليه، ولم يتمكن من اللحاق بهم أبداً، تعلَّم الأرقام والحروف وبعض الأغاني لكنه لم يتمكن من القراءة الصحيحة ، ولم يتجاوز الهوة، المعلمة حاولت بطرق تتقنها ، وتلك الطرق ناجعة حسب تصورها ، تتراوح من المسطرة السحرية التي تعتبرها الدواء الشافي لتنشيط الدماغ ؛ إلى الأصابع المضمومة التي ستنهال عليها عصاها، ثم تتلى بإعطاء الأوامر: اليدان المرفوعتان، والوقوف على قدم واحدة إلى جانب اللوح، ولبس قبعة الشيطان الطويلة الملونة بالأخضر والأحمر تتدلى منها شرابة طويلة، أما آخر العقوبات فكانت غرفة الحطب بعد دهن الأذنين بالزيت كي تأتي الفئران وتأكل الأذنين.

والعقوبة الأخيرة رغم أنها الأصعب للجميع فقد كانت مسلية بالنسبة له، آن دخوله الغرفة نظر إلى كومة الحطب الصغيرة في الغرفة ، ضوء شحيح يتسرب من شقوق في الباب ، لم يرَ الفئران، ولم يكن يخشى عبورها ، والسبب لم يكن يكمن في شجاعته بل لأنَّ والده يملك غرفة أكبر للحطب ، وفيها كميات أكبر من جذوع الأشجار والأغصان اليابسة، وفيها أكثر من عشر دجاجات وكان طبيعياً أن يرى الفئران والجرابيع في تلك الغرفة ،

واعتاد المشاركة في صليّ المصيدة الخشبية للجرابيع، والفخ المعدني الذي يطبق عليها، عندما تأتي لتناول الطعم المدهون بالزيت والمدعم بالجبن ، ويعرف كيف يفر الجربوع مرتعباً عندما يلمح البشر.

أمضى مايقارب الساعة في غرفة الفئران، والسبب يعود إلى عدم حفظه درس الفرنسي، الذي بقي عقدته الكبرى، والتي ماكادت تقترب من الحل حتى أتى وقت الانتقال إلى الابتدائية الرسمية ، فلقد أمضى في مدرسة الراهبات سنة واحدة، تعلَّم خلالها المبالغة في الأدب والتهذيب، عاد بعدها إلى الجو الطبيعي الذي يعيشه معظم التلاميذ في مدينتهم الصغيرة.

تدخلت السريسورابيا لدى المعلمة جهينة وطلبت صفحها عنه، عاد إلى الصف، نظر الأطفال إلى أذنيه اللتين لم تأكلهما الفئران

طلبت المعلمة جهينة من رفيقته ساميا أن تعلم هدرس الفرنسي أثناء الاستراحة بين حصتين ، والغريب في الأمر أن ه أخذ يتعلم بسرعة ماكانت زميلته في مثل عمر هتلقنه إياه ، يبقيان معاً منفردين، وابتدأت المعلمة الصغيرة بمراجعة الأحرف الفرنسية ، ثم القراءة للدروس التي فاتته اعتاد الإصغاء بانتباه إليها، وهو يحس بسعادة متأملاً وجهها الملائكي، الذي بقي ملازماً لها في سني حياتها القادمة، وكأن الزمن لايعبر بها ولا ينال من نضارتها، تحسن مستوى أدائه وترتيبه في الصف ، فلقد انتقل ترتيبه من الثالث عشر إلى الخامس، وتدنت عقوباته وكادت تنعدم.

في الأيام الأولى لوجود ه في مدرسة الراهبات دخل مع التلاميذ إلى الكنيسة الصغيرة، وقلد رفيقه عماد الذي سبقه ووضع سبابته في حوض مائي ثم نقلها إلى جبينه ، تحركت شفتاه ببعض الكلمات ثم دخل إلى

المقعد، وضع السبابة في ذات الحوض ورفع نقطة ماء وضعها على جبينه ثم تمتم بكلمات غير مفهومة كعماد، وجلس إلى جواره على المقعد.

تلت الراهبة الصلاة ، أبانا الذي في السموات ، وتابعتها حتى انتهت، تابع خلفها مردداً ماتقول ، وبعد الانصراف طلب من عماد أن يعلمه تلاوة الصلاة ففعل.

وفي اليوم التالي كانت سورساريبا بانتظارهم ، أخذت وضّاح وفريدة وفائز ونبيل وهيفاء إلى الصف والبقية سمحت لهم بالدخول إلى غرفة الصلاة.

تحدثت إليهم سورسارابيا قائلة:

عليكم بالحصول على موافقة أهلك م قبل دخولكم للصلاة، الصلاة هنا للمسيحيين فقط.

أحس وضاح بالاستياء وه ي تمنعه من الدخول، إنَّها المرة الأولى التي يسمع فيها بكلمة مسيحي ، أحس بشيء مختلف لم تعلم ه إياه الخوجاية نصرية. احمر وجه ه احتبست دمعة في عين يه.«لماذا لا يحق ل ه الدخول»!. لم يكن يعلم أن هناك شيئاً ما اسمه دين آخر مختلف، له صلاة مختلفة فلم يعلم ه ذلك أ حد، ولم تتحدث الخوجاية نصرية عن الاختلاف، رغم أنه سمعها في ساعات الغضب مع أخيها واحتدام المعارك بينهما تردد بعض الكلمات كأن تقول : بأنها ستحمل الصليب وتعبد المسيح، ولعلها المرة الأولى التي يسمع فيها تلك التسمية. في الأيام التالية؛ اعتاد التوقف قرب الباب متمنياً أن يدعى للدخول لكن بدون أمل، وفي كثير من الأحيان عندما يرى غرفة الصلاة خالية . يدخل خلسةً، يضع إصبعه فى حوض التعميد ، ثم على جبهته من جديد ، يتأمل صورة العذراء

والمسيح، يشعل شمعة، يتأمل إكليل المسيح المدمى ونظرته البعيدة إلى السماء، يلقي نظرة أخرى تنقله إلى قطعان الغنم ، ثم يمد رأسه خارج الباب وعندما لا يرى رقيباً يغادر غرفة الصلاة متسللاً إلى خارج المدرسة.

تلاميذ المدرسة مختلفون عن فتحية الناحلة وعبد الواحد الأحول وأحمد الحبقة. المراويل هنا أكثر أناقة من ثيابه المعتادة ، ألوانها تختلف حسب الصفوف من الزهري إلى الأزرق، ثم إلى البيج في صفه.

واللعب هنا مختلف، يوجد باحة واسعة للعب، هنا يجلسون على مقاعد خشبية في الصفوف، يستخدمون أقلام الرصاص والممحاة والمسطرة.

الأولاد في الباحة يركضون ، والأطفال لا يقسمون بالله ولا بمحمد أو المسيح بل يقولون: بالصدق يا معلمتي، وهنا لا أحد يشتم الآخر ، الولد الشرس يعاقب. تعلَّم كلمة القسم الجديدة: بالصدق، بدل أن يقول «والله العظيم وحق محمد وحق عيسى وموسى »، إلى آخر الأيمان التي يتعلمها الأولاد، ليستخدموها عندما يريدون إخفاء عمل ارتكبوه ولا يرضى عنه الأهل، وكلما ازداد العمل بشاعة في نظر الأهل ؛ ازدادت الحماسة للأيمان وتعظيمها، إلى أن تأتي العصا؛ لتحسم المشكلة.

لم تكن الدراسة في الراهبات أكثر جمالاً ولكنها مختلفة ، فالمعلمة جهينة انفعالية وقاسية، هي الأخرى نسخة متحضرة عن الخوجاية نصرية، فهي خريجة مدارس فرنسية ، ورغم صداقتها المزعومة لأمه فهي تحمله سلامها عندما ترضى عنه، أما عندما يكون الدرس الفرنسي صعباً عليه، فعصاها ستنال من يديه، وذات يوم بارد طلبت منه أن يضم أصابعه كي تنهال المسطرة على رؤوسها، أغمض عينيه ولم يتمكن من ضمها بسبب

البرد، يده ترتجف تنسكب الحرارة على وجهه البارد، عيناه تدمعان بحرقة، الدموع ترسم مسارها على خديه:

- انفخ في يديك ثم ادلك كفيك.

وبعد محاولات عدة من جسد مرتجف، انهالت العصا على راحتيه ببضع ضربات ثم توقفت:

- والآن ضم أصابعك.

اقتربت الأصابع لتنال ضربة واحدة، أحسَّ بها تتحطم، وأحسّ بروحه تنسل من رؤوس أصابعه تاركة إياه مع صرخة مدوية وإحساس بالخزي أمام رفاقه. وبعيداً عن العصا، دوى صوتها المرتفع والحاد باعثاً المزيد من الرعب.

أمرته بالركوع في الزاوية حتى انتهاء الدرس، ثم استدارت لتكمل، لكن العصا لم تستطع فتح ذاكرته ، فبعد الانصراف من المدرسة نسي العصا، وذهب ليلعب في الساحة.

ساميا تمكنت بهدوئها وصبرها من ترميم بعض الفجوات لديه ، ورغم إعجابه بها كزميلة ومعلمة صغيرة، لكنه استغرب مقدرتها اللغوية إلى أن أخبرته أنها تتحدث بالفرنسية مع أبويها وأخوتها.

كنيسه ام جامع

ذات يوم ذهب مع زميليه عماد ونبيل إلى الجامع الكبير بعد الانصراف من المدرسة، بناء عملاق ، أقواس متعانقة ، بقايا كنيسة قديمة محاطة بكنيسة كبيرة، أشار عماد بسبابته قائلاً:

هذه الصغيرة بقايا كنيسة بيزنطية ، سميت كنيسة العذراء تهدمت بسبب زلزال، و هناك كنيسة أخرى تحمل ذات الإسم بناها القديس بطرس في ذات الموقع، وهذه الكبيرة كنيسة بناها الإفرنجة حول الكنيسة القديمة وبقيت تحمل ذات الاسم.

قال وضاح مستغرباً: لكنها مسجد ياعماد ! هز عماد رأسه وقال : هذا ماقاله والدي وأنا لا أعرف غير ذلك؛ أصر وضاح:

لكنه ياعماد ألا ترى المئذنة في الخارج، ثم أنَّ اسمه الجامع الكبير.

بعل وعشتار في زاوية
زيوس في زاوية ثانية
بطرس يبني كنيسة من الشرق
تحضرها العذراء المقدسة ولوقا
زيوس وكل رموزه تُلقى في الهحر،
ترحل كسيرة إلى جبل الأولمب
المسلمون يرفعون مئذنة في الغرب

* * *

صوت رخيم ينطلق من الداخل

الأمير رايموند أفسحوا الطريق
الكاهن يتلو عظته
يسرد تاريخ الكنيسة
يشير إلى أيقونة العذراء التي رسمها بطرس
يذكر بحضور العذراء المقدسة تدشين الكنيسة
ارفعي رأسك عالياً ياتوروزا
زاد تشريفك ياهذا المكان
فهنا بنيت كنيسة العذراء الأولى
هنا أقيمت أول ذبيحة إلهية
مباركة أنت ياعذراء
مباركة أنت ياتوروزا.

في الخارج اصطف الجنود مدرعين، ثيابهم مصفحةٌ وخوذهم من حديد، تبرق منها العيون.

ينتظرون الأمير رايموند المبجل.

قبل دخوله الكنيسة قام باستعراضهم فرداً فرداً، مزهواً بهم، فلقد اختارهم من خيرة الجنود ومنحهم لقب فرسان الهيكل حماة الديار المقدسة وكنيسة العذراء المباركة.

بعد انتهاء الصلاة نهض الأمير، سماحة المطران منحه بركاته ، استدار نحو الباب، وقفت جموع المصلين تتبع خطو الأمير. عند البوابة تأمل فرسانه العظام يقفون منتظمين في صفوفهم، حاملين رماحهم الطويلة وسيوفهم العريضة، أمامه البحر وجزيرة أرواد، السماء عميقة الزرقة، أحسَّ بسعادة غامرة

خطا خارج البوابة، بغتة انقض عليه اثنان من الفدائيين ، قفزا من نافذة فوق الباب ، غُرزَ خنجر في القلب وآخر حزَّ العنق ، ركضا محاولين الافلات.

اقترب فرسان الهيكل وجموع المصلين، أحاطوا بالأمير الذبيح، ساد الهرج، عويل وضجيج، حالة من الذعر والارتباك، تصاعدت أصوات غاضبة، الأمير يسقط على الأرض، يلتف حوله الفرسان، يتفرس في السماء، على ثغره طيف ابتسامة مسورة بالحيرة، يرسم على صدره العلامة القدسية الأخيرة.

ترك الرفاق الكنيسة صامتين مذهولين.

الابتدائيه

مدينة صغيرة، مكونة من أحياء أربعة، حي الساحة والخراب ، البرانية والميناء، بحر وتاريخ، بضع مئات من الناس يقطنون فيها ترسم لهم عالمهم، مدينة تمتلك إيقاعاً يومياً؛ لكنه لايخلو من الخروقات التي تزلزل جدران المدينة الصغيرة.

يبدأ اليوم مع صلاة الصبح، العصا تمارس إيقاعها اليومي عليه وعلى أخوته، والده يردد(وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها). إلى أن يقوموا للوضوء نصف نيام، ثم الصلاة ثم العودة إلى النوم، أبو وضاح ينزل بعدها إلى الساحة ؛ ليلتقي بكل الذين أدوا صلاتهم، وابتدؤوا مشوارهم اليومي المعتاد.

صوته يعلو قبل إغلاق الباب: يافتاح يارزاق يا مقسم الأرزاق، تبدأ الحركة مع شروق الشمس، الترويقة التقليدية الفول والحمص والفتة، ثم يعرج إلى القصاب الذي يعلق ذبيحته بشجرة الزنزلخت، المزاج رائق في الصباحات، وجوهٌ مستبشرة تلقى التحية بود وابتسامة، بعد قليل يبدأ وقت الذهاب إلى المدرسة.

عندما أنهى السنة الأولى في مدرسة الراهبات صار عليه المتابعة، أو الانتقال إلى الابتدائية الرسمية، لم يسأله أحد عما يرغب، فلقد رأى والد ه أن عليه الانتقال إلى المدرسة الرسمية.

في مدرسة حطين الابتدائية أجري له فحص سبر معلومات، قراءة، إملاء، أعطي مسألة تقسيم، اجتاز الاختبار بنجاح، قررت المديرة والمعلمات إمكانية تجاوزه الصف الأول، والالتحاق بالصف الثاني.

طار فرحاً يزف لوالده النبأ بعد تقبيل يده، ضحكت عينا الوالد المبيضتان، ومنحه ليرة سورية.

فرحة كبيرة ممتزجة بأسىً لأنه لم يقرأ كتابي الصف الأول الملونين (رِ وكتاب عاشَ)، في هذا العام تعرف إلى معلمته الأولى الحقيقية ، التي علمته الكثير مما بقي في رأس ه طوال عمره، فالإملاء والحساب والقراءة والقواعد تنقش في الرأس خطوة خطوة.

المعلمة تتسأله عن موعد استقبال والدته:

– يوم السبت يامعلمتي.

في يوم الاستقبال؛ خرج مع أخوته إلى الحارة، تقاطرت النسوة، ما يقارب العشرين امرأة، معظمهن متشحات بالسواد، كبيرات السن يرتدين ملاءات أشبه بأكياس سوداء، والأصغر سناً ترى وجوههن تبرق بحمرة الخدود من تحت المنديل الأسود الشفاف، روائح العطور تنتشر أثناء عبورهن، وبعد قليل تعبق روائح النراجيل ، تملأ حواف المنزل ، ثم تنتشر كضبابة شفيفة تغطي سقف الحارة، روائح بقيت في ذاكرته زمناً طويلاً ، كلما شمها أعادته إلى زمن الطفولة.

****

في ذلك العام انتقل إلى مرحلة جديدة، الكتابة بالريشة تغمس في دواة الحبر ثم إلى الأصابع التي سيؤنب عليها لأنها أضحت «مجلغمة»، والدفتر تنتشر عليه بقع الحبر ، كما تملكته عادة نتش أطراف الدفتر بأسنانه. لم يعفه معرفة المعلمة لوالدته من ضرب أصابعه بالمسطرة ، معاقبة على اتساخ أصابعه واهتراء حواف دفاتره.

وضاح يشعر برهبة كبيرة تجاه المعلمة وأستاذ الديانة ، ولهما سطوة الأبالسة، فما أن يرى معلمة أو أستاذاً في الشارع حتى يلوذ بالفرار، وإذا

صدف أن رآه الأستاذ فسترتفع حرارته في اليوم التالي خشية العقاب ، فالشارع لأولاد الشوارع وليس لتلاميذ المدارس.

-هل الأرض مسطحة أم كروية يا أولاد؟

- بالطبع مسطحة يا معلمتي.

- ومن أخبرك بذلك.

- مصطفى النجار، بائع القهوة.

ابتسمت وهي تسأل:

- وماذا قال أيضاً؟

- قال إذا كانت كروية فكيف لا نقع عنها.

- وأنت ماذا تقول يا وضاح؟

- لا أعرف يا معلمتي.

- وأنت يا رامز؟

- كروية، ولكن لا أعرف لماذا لا نقع عنها.

- وأنت يا سالم؟

- مسطحة، قرأ والدي «والأرض بسطناها» صدق الله العظيم.

- ومع ذلك يا سالم فللأرض كروية، والله عز وجل لم يقصد بذلك أنها مسطحة، فيها الجبال والسهول والبحار ومن البحار ستعرف أنَّ الأرض كروية.

وتتابع شرحها ضاربة مثلا بالمركب المبتعد والذي يختفي جسمه قبل صاريه.

قال سالم:

- لكن مصطفى النجار قال إن هذا كفراً، فالأرض مسطحة والشمس تسقط في البحر، تنام ثم تولد في اليوم التالي.

تجاهلت قول سالم وتابعت:

هذه هي الكرة الأرضية، وأشارتْ بيدها معددة القارات. قال رامز:

- معلمتي، لماذا لا يقع الناس هنا ؟ وأشار إلى أحد ما يسكن إفريقيا، لماذا لايقعون بعيداً وكيف يسيرون وأقدامهم نحو الأعلى ورؤوسهم بالمقلوب.

ضحك الطلاب. ابتسمت المعلمة مرغمة وكشرت ثم قالت:

- إنها الجاذبية الأرضية، وستكون موضوع درس لكم في المستقبل.

- من الذي أثبت لنا كروية الأرض أيها الأحبة؟

إنه ماجلان، ودرسنا القادم في الجغرافية سيكون حول ماجلان ورحلته شرقاً ثم عودته إلى ذات النقطة التي انطلق منها.

الرحلات حول العالم والكرة الأرضية والشمس والمدارات تركتهفي متاهة من الأسئلة.

ترى من الصحيح؟ مصطفى النجار وسالم أم معلمتهوالكتب؟ إن معلمته تصلي وتعلم هم الديانة والقرآن وتقول بأن مصطفى النجار يفسر القرآن بشكل غير صحيح ، وهي معلمة ، مصطفى النجار يُكَفِّر ما جاء في الكتب وقال: هؤلاء العلمانيون مثل مصطفى أتاتورك إنهم كفرة.

ماذا يعني علمانيون، هل تعني أنهم حقاً كفرة ولا يؤمنون بالله؟ ومن هو مصطفى أتاتورك هذا يا أبي؟

أبو وضاح قال إنّ مصطفى أتاتورك هو الذي فصل الدين عن الدولة فى تركيا، بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى، وغيَّر الكتابة التركية من

الحروف العربية إلى الحروف الإفرنجية ، ألغى الخلافة وأقر النظام الجمهوري.

- هل هو كافر يا والدي؟
- لا أعرف.
- ماذا يعني أنه فصل الدين عن الدولة؟
- في الماضي كان السلطان خليفة المسلمين يحكم باسم الدين، والآن بقي الدين للناس في بيوتهم والمساجد أما الحكم فهو بقانون تم وضعه للحكم.

دوامات الأسئلة ترهقه وهو يغرق بين خرافة الجان في المدينة وبين رحاب العلم والفلك والشمس والكون، وفوق كل ذلك يتربع الإله.

- أين هو الله يا والدي؟
- ابتسم والده لسؤاله وقال له: في مثل سنك سألت والدي هذا السؤال فضربني، وقال هذا سؤال لا يسأل ياولد ، أسئلتك أكبر من عمرك. هذا ما قاله جدك، أما ما قاله الشيخ المجذوب «إنَّ الله لا يحد يا ولدي، ولا يمكن رؤيته، وعندما حاول سيدنا موسى رؤيته قال له انظر الجبل فنظر موسى إلى الجبل فرأى نوراً مبهراً لايمكن التحديق به ، وأدرك موسى بأنه لايمكن النظر إلى وجه الإله».
- ولكن إذا وسع كرسيه السموات والأرض فكيف يمكن للإنسان ألا يراه؟ وأين هي الكرسي؟
- يمكنك أن تراه بعقلك ، ترى خلقه ، ومع ذلك فأكثر الناس يخلقون صورة له في عقولهم، الإنسان يرغب دائماً في تجسيد ما يعبد. توقف والده ليرى أثر كلماته عليه ثم قال:

أنت تعرف الشيخ المجذوب ، هو عصبي سريع الانفعال لكنّه مستنير ؛ ولكن الرجال الأكثر استنارة هم محمد عبده والأفغاني والكواكبي والزهراوي، ستقرأ عنهم في التاريخ.

– وماذا فعلوا؟

الكثير الكثير لتخليص الدين من البدع والخرافات والترهات ، وكذلك طه حسين وأبو العلاء المعري.

– بعد زمنٍ أدرك أ نَّ والد ه معجب بالأخيرين لأنهما كفيفا البصر مثله ، ولأنهما تلقيا العلوم شفلهياً، ووالد ه يتبع ذات الطريقة في اكتساب المعرفة ، وهو في حيرة دائمة: كيف أمكن لوالده الكفيف أن يمتلك تلك الذاكرة المدهشة؟

والد ه يتحمل كثيراً من عبء أسئلته أما عم ه مصطفى فله الفضل الأكبر في تنشئته إضافة لوالديه في الستين من عمره وقع عن ظهر الحصان فانكسر وركه ، وصار أعرج يسير متكئاً على عصا ه يهوى المطالعة وخبرته بالحياة واسعة ، عم ه مصطفى ووالد ه يجلسان في دكان واحدة ، غدت مقراً لهما توارثته العائلة عن جد ه صاحب أراضي الزيتون، وفي دكاكين مجاورة يضع ان حصتيهما من مواسم الزيت، اعتاد وضاح الذهاب إليهما بعد الانصراف من المدرسة، قبل صعوده إلى المنزل.

يجب ألا تغرب الشمس والولد العاقل خارج البيت ، هذا أشبه بالقانون المتعارف عليه.

في جلساته الطويلة معهما يحدثه عمه عن قصة العائلة.

قال له الشيخ حمزة وكان في التسعين من عمره أن أخوة ثلاثة من اليمن، هاجروا ومعهم أيقونات وأصص تثبت أصولهم، إنهم من قبيلة بني النعامة، حدثت حروب ثم هاجر الأخوة منذ أقل من مائتي عام.

شيء ما أشبه بالأسطورة ترسم ذاكرته، وهو يتخيل حروباً بين القبائل، قتلى وجرحى، غزواً وتشرداً. أخوة يفرون مع عائلاتهم؟ وهو يأسف لفرار أجداده، فهو لايتصور أن أحد أجداده قد هزم. ينتابه إحساس بالعار يحتبسه في داخله؛ لكنه يحمل حنيناً لأرض الأجداد.

مرتحلون يجوبون العالم ،
يعبرون مدناً اندثرت،
أحياءً عامرة وأخرى انهدمت،
يهربون من أشباح الظلام،
يحملون خيامهم وأحلامهم،
طريق العودة انقطعت،
قدم في النار وقدم على حافة الهاوية
أفاع في الصحراء
يتبعون مسارات النجوم
تتوقف راحلتهم في توروزا
تستهويهم ملوحة البحر وشمس الصباح

عندما درس اليمن تعلق قلبه بها إنها اليمن السعيد، بلد بلقيس وسد مأرب، جبال ومقاتلون، عندما يقرأ عنها يشعر بالزهو:

«هي البلد الوحيد التي لم يتمكن من إخضاعها سلطان ، فالجبال الحصينة تجعل السيطرة عليها أمراً شبه مستحيل».

ومع حروب اليمن ونكباتها بدأ يشعر بالخيبة ، عندما درس التاريخ والجغرافيا تساءل كيف أمكن لهذه اليمن أن تضخ كل هؤلاء البشر إلى البلاد العربية، وكأنها مفرخة بشرية يتوالد فيها البشر ثم ينتشرون.

عمه علمه الخط، فخطه متعة للناظرين ، اعتاد وضاح تقليده لفترة وجيزة، ثم يعود إلى رداءة خطه، يكتب بسرعة، ويتصرف بسرعة في كثير من الأمور. عمه يكتب كل حرف على حدة مجاوراً للحرف الذي يليه،يكاد الحرفان يتلامسان فيأتي خطه تحفة فنية، نهايات حروفه مستقيمة وترى بين يديه شكلاً لصفحة أشبه بلوحة.

ومع ذلك فالكتابة بطريقة عمه لم تناسبه أبداً، فهو يحاول تقليده، عندما يكتب له نصاً ويطلب نقله، أما دفاتره فتتميز بخط رديء، ومع ذلك ففي المسابقة لكتابة الخط، يحظى بعلامة مرتفعة لاستخدامه طريقة عمه تسأله المعلمة:

- لماذا لا تكتب بذات الطريقة دائماً يا وضّاح؟

يرفع رأسه وكتفيه، تحمر أذناه ويحار جواباً

في باحه المدرسه

سعد باشا وبدر خليل وفاروق تامر وأحمد أبو الضب هم أبطال الباحة. يلعب مع سعد وبدر لعبة الخناجر، أيدي هم يستخدمونها وكأنها خناجر، والذي يصيب جسد الآخر يحتسب له علامة. تعد الضربات، ومن يصل إلى 10 علامات أولاً يكون المنتصر. ويلقب بـ «أبو الخناجر»

أحمد أبو الضب فلسطيني أسمر قوي البنية عيناه بارزتان يكاد الشرر يتصاعد منهما، عندما تتحدث المعلمة عن عنترة تقول : إنه شبيه زميلكم أحمد أبو الضب.

فاروق تامر أشقر قوي البنية هو الآخر، ولهما مباريات شبه يومية في المغالبة، يقتتلان حتى يوقع أحدهما الآخر على الأرض.

لم تدم بطولة المدرسة لأحدهما باستمرار ؛ فكان واحدٌ منهما منتصراً ثم يتبدل عندما ينتصر الثاني، وحين يصبح أحدهما بطل المدرسة فالطلاب يغدون في حمايته، وإذا ما تعرض طالب لتهديد أو ابتزاز فسيقول أنا بحماية فاروق أو أحمد، وعندها لن يتجرأ طالب ما على الاعتداء عليه.

في الصف الثالث علمتهم المعلمة كريمة، وهي من الحزب القومي السوري. واعتاد وضاح رؤيتها تزور بيت عمه،فوق منزلهم، وابن عمه هو أحد المتنفذين في حزب القوميين السوريين، المعلمة كريمة تطلب من وضاح في كثير من الأحيان أن يبلغه رسالة:

- قل لابن عمك اليوم الاجتماع في بيت المعلمة كريمة. لا تدع أحدا يسمعك، قل له على انفراد.

يبتسم ابن عمه عندما يخبره، يهز رأسه ثم يربت بيده على رأس وضاح برضى، ولم يكن يفهم معنى اجتماع، يشعر أنه يقوم بعمل ما له أهمية ،

ولم يكن يعرف أكثر عن حزب اسمه القومي السوري الاجتماعي سوى أنّ شعاره الزوبعة، وأن زعيمه أنطون سعادة، وتحيتهم: تحيا سوريا.

في ذات السنة اغتيلَ العقيد عدنان المالكي وقال وا إن الذي اغتاله هو سوري قومي، اعتقلوا القوميين السوريين وأمسكوا ابن عم هوسجنوا المعلمة الكريمة.

رفض الطلاب دخول الحصة المدرسية، المدرسة أضربت وأخذ الطلاب يرددون:

(اليوم عنا فن جديد

غير المعلمة كريمة ما منريد).

بكوا وصرفوا إلى منازلهم.

المعلمة كريمة عند دخول هم إلى الصف قسمت هم إلى فرق ثلاث، الأمويين والعباسيين، والفاطميين. وجعلت اللون الأموي أخضر، والفاطمي أبيض، والعباسي أسود.

الصف يتألف من ثلاثة صفوف من المقاعد المتتالية أطلقت اسماً على كل صف من المقاعد ونصيب وضاح اللون الأسود.

سامي يجلس إلى جوار ه.أخبرهأن أهله من الشيوعيين، لم يكن يعلم ماذا يعني هذا الكلام لكن هسمع أنهم لا يعترفون بالله ويتبعون روسيا ، والدهيحبهم، واعتاد أن يزورهم قريب لوالد هعبد الكريم ، وهو مسؤول الشيوعيين الأوائل في المدينة.

عبدالكريم

يسعى أبو وضاح إلى مناكدته وحشره في زوايا الاتهام، لكنه اعتاد الإفلات من محاصرته. يسأله:

– لماذ لاتؤمنون بالله؟

– نحن نؤمن بالله ، القرآن كتاب عظيم ، ومحمد من قادة الاشتراكيين؛ الذين دعوا إلى المساو اة بين الناس وحارب الفقر ، نحن لسنا كفرة كما يشاع عنا، إنها دعاية ضد الشيوعيين.

ويسألُ والده بجدية وبصوت رزين:

– لماذا تتبعون روسيا؟

– نحن نؤمن بالوطن ولكننا نؤمن أن الإنسانية واحدة في كل مكان ، في روسيا وسوريا.

ترتفع العقدة بين حاجبيه ويسأل باستغراب:

– لماذا تقولون يا عمال العالم اتحدوا بدل يا عمال العرب أو يا بلاد العرب؟

– نحن نريد أن يتحد عمال العالم من أجل قهر الظلم والاضطهاد. وقال مداعباً مشاعر والده:

– إن محمد أول ثائر عربي ونحن نجله ونحترمه ، ودعوته جمعاء ولم تكن للعرب وحدهم بل للعالمين.

زارهم عبد الكريم يوم رحل الشيشكلي، وكان ت هناك أهزوجة يرددها الأطفال في الشارع حفظها وضاح آنذاك.

«خالد خالد خالدنا

خالد دك الاستعمار
لمّا وزع بيانـه
الشيشكلي عن عرشه طار».

أدرك أن والد هيحتم قريبه عبد الكريم و لكنه كثيراً ما تساءل: أتراه يصدق أقواله أم أن الدافع لمودته هي صلة القربى بينهما؟

وعندما مرت الأيام سجن عبد الكريم ، ورفض الانسحاب من الح زب الشيوعي، حزن والد همن أجله كما حزن يوم دخول ابن أخيه السوري القومي السجن ، وكان يقول : لا أدري لماذا تفرق الأحزاب الأشقاء ، ففي منزل أخي يوجد البعثي والقومي السوري وابن خ النا شيوعي، ومادامو يعملون جميعاً من أجل الوطن فلماذا يختلفون ولماذا يسجن بعضهم البعض؟

وبقي عبد الكريم في السجن سنينَ طويلةً ، تحرر بعدها، انتظرته خطيبته التي رفضت الزواج، ورفضت كل من تقدم لها حتى كادت تعنس، وبعد خروجه، تزوج منها وأنجبت وعاد ليمارس مهنة المحاماة، وصار يرى في المسجد مع كل صلاة.

تائهاً في السجن
رابحاً خاسراً مفكراً
أسير فوق شكوكي
روحي سجينة الجسد
الرؤية أعتمت
يوم غادرني النهار
والفجر بعيد

زوابع تؤجج داخلي

تركوني وحيداً منسياً

أنام كالموتى

تساكنني الأشباح

نور يشع من نافذة صغيرة

يهدل فيها الحمام

يتجول حولي طيف امرأة

تحمل صورتي في قلبها

أبت أن تودعني

وما تزال بانتظاري

خلف زجاج النافذة.

في الكنيسه

الكنيسة تواجه مدرسته الابتدائية، وضاح يدخل إليها، بحرية أكثر من غرفة المصلى في مدرسة الراهبات، يتأمل صورة المسيح والمحراب ، تعلَّم أن يشعل شمعة. يدخل برفقة فريد، الذي يرفع علامة الصليب عند دخوله ، ولم يكن يعرف تماماً كيف يقوم بتلك الحركة، يرفع يده مضمومة إلى وجهه ثم كتفيه.

الخوري الياس عملاق، عقد شعره خلف رأسه ككعكة مدورة، بدا ودوداً، وهو يسأله عمن يكون، لم يطلب منه الحصول على إذن والديه، حمَّله السلام إلى والده وقال: خالك محمود صديقنا الله يرده من غربته.

وعلم فيما بعد أن سبب هجرة خاله محمود الأبدية إلى البرازيل ، أنه أحب امرأة مسيحية ولم يستطع الزواج بها، بسبب عدم موافقة الأهل، وبعد تلك الرحلة لم يعد.

قالت والدته: كان خالك صديقاً للخوري ولجميع سكان حي الخراب، له دكان في حيهم مازالت تسمى باسمه.

حدثته أمه عن أخيها المغترب بحرقة، ولعنت الساعة التي لم يطاوعوا رغبته في الزواج ممن يحب، وتركوه يسافر إلى المهجر.

نقل السلام لوالديه ففرحا وقالا كلاماً طيباً عن الخوري الياس.

بدت في الأفق ملامح أيام جديدة، مظاهرات واحتفالات، الناس يتجمعون حول الراديو في المقهى، يتحدثون عن تأميم قناة السويس وحرب الـ 1956، ثم أحاديث عن وحدة بين سوريا ومصر. وأخذ الناس

يتحدثون عن القومية العربية . ولدت كلمات وتعابير جديدة أخذ يرددها الناس دون أن يدركوا لها معنى.

ذات صبيحة تناهى إلى سمعه أصوات صاخبة، اخترقت نوافذ المدرسة، تردد لا إله إلا الله ثم المسيح حبيب الله، محمد حبيب الله، لا إله إلا الله.

خرج التلاميذ من صفوف المدرسة. جمهرة من الناس يحملون مفتي توروزا وخوريها على كنبات إلى الكنيسة، غصت الكنيسة وباحتها بالناس، ألقى الخوري عظة، ثم خطب الشيخ، ويوم الجمعة دخل الخوري مع المفتي إلى جامع الساحة محمولين بذات الطريقة.

سرت شائعة بين الناس عن توحيد الدين المسيحي والإسلامي في توروزا، لا فرق بين الدينين، كلنا نعبد الله، كبرت فرحته وهو يتذكر حرمانه من دخول غرفة الصلاة في مدرسة الراهبات.

ساحة الحرية

لايدري كيف التصقت بها كلمة الحرية ، فهو اسم مكتوب على لوحة صغيرة معلقة على بوابة الساحة الشمالية، وهي تمثل توروزا القديمة العسكرية، التي بناها الإفرنجة حصينة، ولها خندق مائي يحيطها من ثلاث جهات، الشمال والشرق والجنوب والبحر من الغرب، لتصبح أشبه بجزيرة، وخارج الخندق المائي يوجد سور ثانٍ ثم سور ثالث حيث تبدأ المدينة الأكثر رحابة وهي المدينة الأسقفية . المنازل احتلت القلعة ، غرف طويلة، جدرانها هرمية مغلقة، تجري فيها المجارير ويسكنها الجان ، وعندما بنيت سموها مدينة الأسوار السبعة.

بيت عائلة وضاح واحد من البيوت التي احتلت « الدون جون (الحصن المنيع)». يطل على البحر، وعلى صخرة الخلقين. وفي الشتاء عندما تثور العواصف يصطدم البحر بجدران المنزل.

الكزدريك شرفة مطلة على البحر مسقوفة بالقرميد، يمكن الدخول إليها من الغرفتين الكبيرتين، وفي الخارج فسحة سماوية ومطبخ منار بفتحة في السقف يتوسطه بئر ماء، وزاروب ضيق كممر يوصل إلى باب سري يصل المنزل بالبحر، وفي الطرف الآخر، غرفة المؤونة.

لايدري كم جيل من الأجداد عاش في هذا المنزل، جدته بقيت معهم كنسمة ربيعية، بيضاء، رقيقة، صغيرة الحجم، عيناها زرقاوان وصوتها ناعم.

نوب السعال نادراً ما تفارقها ، وعندما تشتد تلك النوبة تطلب منه أن يمسك يدها ، لتقوم بجولة في فسحة الدار ، تجهد لتتنشق الهواء، يصغي

إلى صدى صدرها يخفق طالبا المزيد من الهواء. وعندما تستريح تجلس لتحدثه عن جدهبإعجاب كبير ، والده لا يغادر المنزل صباحاً قبل أن يقبّل يدها، يسألها الرضى، و هي تمطره بدعواتها، متطلباتها في الحياة قليلة، لكنها تمنحهم بسمة تشع محبةً وألقاً.

ياثار كوني بردا وسلاما

المحيا

ليلة النصف من شعبان يتم الإعداد لها منذ بداية شهر رجب، يذهب وضاح مع صحبه إلى الكروم لقطع بعض الأحراش وأغصان الزيتون ، ومن المدينة أغصان الزنزلخت التي تزين شوارعها، ثم إلى الدكاكين، لإملاء زجاجات فارغة بالكاز، ولجمع النقود بغية شراء المزيد من الكاز، يقولون:

من أجل المحيا يا عم.

لا يوجد من يقول -لا- في كل الساحة، الجميع يساهمون في هذه المناسبة المباركة.

قبل نصف شعبان بأيام يبدأ تجميع الحطب في منتصف الساحة. تجّمع كومة الحطب بشكل قبة ، قطر قاعدتها حوالي عشر ة أمتار، ثم تعلو في السماء قدر المستطاع.

في هذه الفترة من كل عام تنقسم المدينة إلى أحياء متصارعة- الساحية -أهل الساحة- الخرابية- أهل الخراب- والبرانية- أهل البرية.

ويعبر بعض مشاغبي الخراب والسهلة (وهي جزء من حي الخراب) الساحة ركضاً من طرف إلى آخر، أطفال وشباب أعمارهم من الثامنة حتى السادسة عشرة يحملون حجارة ويبدؤون برجم أولاد الساحة.

وأولاد الساحة مستعدون لتلك الهجمات يحملون حصىً صغيرة في جيوبهم؛ ما أن يباغتون حتى تبدأ معركة الحجارة، يركض مهاجمو الخراب والسهلة من بوابة الساحة الشمالية إلى الجنوبية ، يلقون حجارتهم عشوائياً حتى يصلوا الطرف الثاني منها، هناك يبدأ حي الخراب، وعندما تنتهي

هجمتهم؛ يُخلفون وراءهم عدداً من الرؤوس المفجوجة ، وعادة لا تكون على درجة كبيرة من الخطورة، فالحجارة المستخدمة صغيرة ملساء، وقد يصابون ببعض الإصابات إذا لم يكن مجيئهم مفاجئاً.

يجتمع أولاد الساحة لمعركة الثأر ، يذهب عدد منهم قد يقارب الثلاثين في هجوم انتقامي يرجمون الأولاد بوابل من الحجارة ، ثم يعودون إلى ساحتهم فخورين بما أنجزوا.

في تلك الفترة التي تطول أكثر من شهر ؛ لايتجرأ خرابيٌ على عبور الساحة منفرداً إلاّ في حماية ولد من الساحة، والعكس صحيح.

ذات المعارك تدور مع أهل البرانية الذين يقيمون شمالي الساحة ، في حارة البرانية والمين ا، وهي موحدة توحد الساحة والبلدية أو الخراب والسهلة. وكأنَّ الجوار خلق ليكّون تحالفات عفوية.

في ليلة النصف من شعبان يلقي المفتي خطبته المعهودة حول النبي إبراهيم وناره، ويشيد بهذا التقليد الذي تتميز به توروزا عن سائر البلدان، ويقول إنَّ العبرة المستخلصة من القصة هي نجاة سيدنا ابراهيم من النار ، وهي دلالة إيمانه ومعجزة رسالته، فبعد انطفاء النار، شاهد الكفار النبي ابراهيم في ر وضة من الجنة ، أمامه نافورة م اء، ومن حوله الغلمان والحوريات الحسان.

كم انتظر انطفاء النار ليشهد النبي ابراهيم، وقد أنقذ من النار؛ لكن تأخر الوقت. لم يكن ليسمح له بالبقاء طويلاً، فالنار لن تنطفئ.

حتى مابعد صلاة الفجر ، وإمام المسجد لم يكن ليكتفي بقصة ابراهيم ، بل يتحدث عن مناسبة أخرى تتعلق بنصف شعبان: حيث يكتب على شجرة من الجنة – شجرة السدر– أسماء العباد على أوراقها، ومن ذبلت ورقته

وتساقطت سيموت في وقت مبكر قبل انتهاء العام، ومن اصفرت قليلاً، فستكون وفاته قبل انتهاء العام بقليل، ويوصي الناس بتقوى الله لأن الأجل يُحدد في تلك الليلة ، ولا يدري من سيشهد المحيا في العام القادم ، ثم يتحدث عن مناسبة ثالثة وهي انتقال قبلة الصلاة من المسجد الأقصى إلى الكعبة المشرفة.

ويعيداً عما يقوله شيخ الجامع، تتجمع في الساحة كومة الحطب و يبدأ – يحيى الطحلولي– بمراوغة الشرطة التي ستمنع إيقاد النار، والشرطة المتواطئة تتلهف لمراقبة المنظر لكنها مأمورة تأتي لحفظ النظام.

يقترب شاب ليتحدث مع الشرطة، بينما يصب يحيى تنكة الكاز على عدة جهات من كومة الحطب اليابس. ويضرم النار.

للنار سحر عجيب ، ومعها تبدأ الأهازيج، تنطلق زغاريد النسوة من بيوتهن، ويعلو صراخ الرجال:

لا إله إلا الله لا إله إلا الله، وتبدأ الصلوات الإبراهيمية بصوت عالٍ ورزين.

يتساءل وضاح في داخله: لماذا خصت نار المحيا مدينة توروزا؟ ولماذا تمَّ توقيتها ليلة نصف شعبان المباركة.

يقول الصوت الذي في داخله «إنها نار مجوسية»

يجيبه وضاح: اصمت لئلا يسمعنا أحد.

صوت المفتي يلعلع معطياً إشارة البدء من فوق منبره:

يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ؛ تضطرم النار، ويرفع صوته ثلاث مرات بالنداء: يا نار كوني، ويصب يحيى المزيد من الوقود وتسمع قرقعة النار ويرتفع اللهب في السماء، ويحكي المفتي عن كل أنواع النيران

وهم يدورون حولها يلفعهم لهيبها، يراقبونها تلتهم فروع الزيتون والزنزلخت، أشباح سوداء تتطاير فوق الراموشة المستعرة، ويصرخ المتفرجون ياعظمة الله إنها الشياطين تحترق بالنار، ويستمر المفتي مذكراً بسقوط أوراق شجرة السدر، يسأل الناس التوبة، ويقرأ الناس بصوت مرتفع صورة يسن، داعين الله أن ينجيهم كما نجا من النار ابراهيم.

المحلات في ساحة توروزا مزدانة، وهناك يبيعون ملبس اللوز والقضامة والفستق الحلبي والملوحات من بَركة المحيا. و يقوم بعض المحسنين بتوزيع النقولات في المسجد ، ويشرب الناس الماء الذي وضع في المسجد والذي أصبح مباركاً.

الدين بدأ يختلط بالسياسة والمفتي يذكي شعور الناس، وعدد المصلين يزداد، يفيض المصلون عن ساحة المسجد إلى الشارع، مع رجل متدين بحرية وبلا تشدد ، يفتي حسب العقل والواقع المعاش ، يصل للناس أكثر مما يقطع، والناس يحتكمون إليه في نزاعاتهم وله فيها القول الفصل.

ومبدؤه: الدين من يسر وليس من عسر ، وخارج المسجد هو على درجة كبيرة من المرح و الظرافة، يجلس بين الناس في دكاكينهم ، أو على كرسي جانبي في مقهى مجاور للمسجد قرب موعد الأذان.المدينة أحبته وقد درّس طلاباً في الثانوية، يرتاد درسه طلاب مسيحيون ومسلمون. هو ابن المدينة ، يعرف حاجة المدينة وحاجة الناس الدينية والوطنية ، قادر على تحريك المشاعر بطبقات صوته الآسرة، فعندما يبكي، يُبكي الناس ، وعندما يتحدث رافعاً معنوياتهم ترتفع رؤوسهم وتشمخ حتى تطال السماء.

ومع امتداد السنوات تألق وسطع ، وصار نجماً في عالم السياسة ، وصار في أيام الوحدة وحدوياً وفي عهد الانفصال جلس في بيته وبعد إنتهائه صار وزيراً.

بعد إشعال نار المحيا يعم السلام، يأتي أولاد الخراب والسهلة والميناء والبرانية إلى الساحة للسلام والتهاني بالعيد حيث يستقبلون بشكل حسن، تتوقف معارك الحجارة وحربها و «فدوغها» لعام آخر بانتظار قدوم موسم جديد ومحيا جديد.

منير المغربي يلعب السيف والترس مع أحد الشبا ن الذين دربهم، ومنير هو واحد من الناس الذين توارثوا السيف والترس عن أبيه ، ومع استعار النار تبدأ مباريات تتسم برقص سيف رجولي.

السيف طويل والترس نحاسي صغير ، يبدأ المتبارزان اللعب برشاقة ، يبتعدان ثم يقتربان ثم يدوران ، النار تستعر خلفهما ، يبدأ ضرب السيف على الترس ضربة فضربة، كل واحد يضرب ترس الآخر بسيفه، ثم يدوران مستعرضين متباهيين، يشتد الوطيس وتتالى الضربات، ينحني أحدهما إلى الأرض ثم يقفز في الهواء، السيف يدور في يده ويلاقيه الآخر بسيفه ثم بترسه، ينفلت منه وهو يدور مراوغاً، يلتفت بسرعة خاطفة ليلتقي بسيف الآخر. منير يبتسم والشاب بين يديه، يداري ضرباته، ويسمح له منير بالمزيد من الدوران الراقص والاستعراض، وقد تدوم المعركة ربع ساعة أو أكثر، ثم يطلب أحد الحضور من السيد منير إنهاءها. وببراعة مطلقة يلمس بسيفه صدر خصمه مداعباً ماسحاً ثيابه بالسيف، ويأتي الآخر ليقبل رأسه، ولم يكن أحد ليتغلب على منير إما لبراعته أو احتراماً له، فهو المعلم لكل من حمل السيف وأتقن فن اللعب والمناورة به فى المدينة.

النار تبقى مشتعلة حتى الصباح، وي ردد والد هما قاله المفتي : وُضع إبراهيم عليه السلام في النار بعد أن حطم التماثيل ، رغم أن والده هو صانع التماثيل، ولقد أمروه بالعودة إلى دين أبيه ؛ لكنَّه أبى وقام بتحطيمها ووضع الفأس في رقبة أكبرهم.

وقالوا له أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم؟ فقال اسألوا كبيرهم. قالوا لكنهم لا ينطقون.

– لماذا تعبدون حجارة لا تنطق؟

يضحك والده متابعاً بسخرية، وبأسلوبه المختصر:

جمعوا كومة حطب ووضعوه داخله ا، وأحرقوه، وبعد أن رمدت الكومة، رأوه في رابية خضراء وبركة ماء ، وحوله الفواكه والأرائك ومائدة من الجنة وحوريات وغلمان يقمن على خدمته.

بينما يتحدث عن النار يفكر وضاح في كنه هذه القوة ال غريبة، كيف يمكن أن تتحول النار إلى ماء ، وإلى رابية خضراء وموائد طعام ، ورغم الحيرة التي تغلف الرواية يقول: لا بد من وجود أمر ما لا يمكنني إدراكه ؛ لكن لماذا لا تتحول نار المحيا التي نشعلها إلى رابية خضراء وما قصة موائد السماء؟

مع ذلك يتابع والد ه: إن هذه النار يا ولدي لا تعادل واحد اً من ألف من قوة النار التي سيحترق بها الكافرون، حيث تشو ى جلودهم ويشمون رائحتها المرمدة، ثم تتجدد ثم تشوى حتى يُكّفرون عن ذنوب ارتكبوها، فمن كانت سيئاته قليلة فلن يشوى طويلاً ، ومن كانت سيئاته كثيرة فس وف يتحول إلى رماد، ثم يستعيد جلده ثانية ثم يحترق إلى أن يتطهر، ومن كان كافراً فلن يتطهر أبداً، هؤلاء هم المخلدون فيها.

تألم وضاح من أجل هؤلاء المخلدين في النار، وخشي أن يكون واحداً منهم وشعر بالأسى من أجلهم، تذكر الخوجاية والحلم ونهر النار، وسأل والده:

– لكن أليس الله غفوراً رحيماً.

– ما عدا الكافرين فليس لهم رحمة ولا مغفرة.

النار مستعرة أمام عينيه، تأتيه صور المحترقين فيها، يسمع صراخهم المكتوم، يكاد يرى وجوههم تحمل ملامح الألم، لايصدق تلك الصورة! يتمنى أن يغير والده قوله ورأيه، يردد في قلبه وفي لسانه إن الله غفور رحيم، لا يمكن لله أن يدع أناساً خلقهم يتعذبون ويحترقون، ويتساءل بخوف لماذا خلقهم إذا كانوا سيحترقون؟

رؤيا من الخوف والغرابة
نار تستعر قي السماء
تنبعث الحشرجات الأليمة
بحر ثائر يزحف صوب النار
الإله يصدر أوامره الرحيمة
تترمد النار وتختفي المحرقة.

اشقياء الساحه

المبلي

ساحة صغيرة، أجواء مغلقة على ذاتها، بشر تنوعوا باختلاف طرق عيشهم وأهوائهم.

من الطيبة والإيمان إلى الشراسة والقذارة واللواطة.

مدينة احتوت فيما مضى نسخة من النسخ الخمس الأولى ل مصحف عثمان بن عفان ، وضعت في المسجد العمري القديم، الذي اختفى ربما بتأثير الحروب أو الزلزال، واختفت معه تلك النسخة، أول ماسميت ب أليزا، ثم توروزا . أسماها اليونانيون انترادوس، أعاد بناءها قسطنطين الكبير وأسماها كوستانطيا باسمه، ليعيد الصليبيون اسم توروزا إليها من جديد.

مدينة تضطرب ذاكرتها، تعبرها نماذج متباينة من الناس يعرف الواحد منهم كل شيء عن الآخر ؛ مجتمع يضم الجميع حتى ا لأشرار والزعران، كثيرون منهم يحتفظون بمعرفة أسرار الآخرين، هنا يحدث نوع من التواطؤ السري يجعهلم يغمضون أعينهم ؛ شرط ألا تظهر تلك الأسرار للعلن، مجتمع صغير تُبنى لحمته من فسيفساء بشرية.

أسماء غريبة وألقاب تنم عن واقع أشد غرابة. المبلي، وخِرطأ، وبرهوم طعمي، وسكسيك والبحشي، (أبو علي جحشة) وأبو جحشة، وأبو حشيش ، وأسمهان، وفومنشو، وفلايش والإس.

ولكل واحد من هذه الشخصيات واقع سوريالي وحياة غرائبية.

فالمبلي هو ابن عم ته، وهو أخ الأستاذ محمود زوج روحية، صياد سمك ماهر، يصنع الديناميت بعد طبخه السماد الآزوتي.

رمى الديناميت ذات يوم فطارت يده اليمنى وعينه اليمنى ، وبعد مدة عاد للصيد وكان من أبرع الصيادين، رمى الديناميت باليد اليسرى زمناً طويلاً ثم طارت عينه اليسرى ويده اليسرى.

ومع ذلك لم يتوقف عن الصيد، فهو يأخذ معه في زورقه من يعينه، يتحدث عنه غلامه بأنه يمسك الكبريت بين أصابع قدمه اليسرى، و يحاول إمساك عود الكبريت باليمنى، ثم يحدد له موقع رف السمك: ساوي يامعلم، على اليمين، السمك على بعد ثلاثة أمتار ، العمق، قامة، رف كبير، رف يامعلم.. يالله يامعلم.

بحركة خبير متدرب يحاول تحريك عود الكبر يت بين إصبعي القدم اليمنى على الكبريت بين إبهام وسبابة اليسرى، يقرب إصبع الديناميت من الشعلة بجذمور يديه يرفعه بالجذمورين عالياً ثم يلقي به حيث أرشده غلامه. وإذا مافشل في عملية الإشعال يهرع الغلام ليساعده بإشعال الفتيل دون أن يعلن عن تلك المساعدة.

– يا معلمي، عملت مجزرة «السمك طاف امتلأت الدنيا».

ترتسم بسمة الصياد المنتصر ويصرخ:

– (قالوا المبلي مانوا صياد. ولك أنا بصيد أكثر من المبصرين بمية مرة).

السمك الذي يصطاده المبلي ليس للبيع ، سيوزع على الجيران والفقراء والأرامل.

وعندما يتشكك الحاضرون برواية الغلام يهز المبلي رأسه بدون تعليق، ويقسم غلامه أغلظ الأيمان على صدقه.

المبلي الأعمى مقطوع اليد ين يُسّلك شبك الصيد مستخدماً جذموري ساعديه وأسنانه، يذهب للصيد ولكل صياد غلام يرافقه، وتكثر الأقاويل عن الصيادين وغلمانهم.

زمن الحب

البوح

بعد عودة عامر من دمشق للإقامة الدائمة في توروزا، وفي لحظة بوح تحدث إلى وضاح عن سبب غربته التي بقيت سراً لأهل توروزا، وعامر هو صديق وضاح وابن حارته:

ألا تذكر جارتنا باسمة وزوجها عبدالغفور، وأخيه الصياد مهاب الملقب بخِرطأ، صياد الشبكة الفردية ورامي الديناميت؟

تداعت ذكريات الصديقين، عامر ينبش ذاكرته ويتحدث عن الأمس وكأنه اليوم:

مهاب عملاق، شرس، يخشاه الأولاد ، عازب ومتهم بالشذوذ، عندما يظهر في الساحة يتفرق الأولاد بعيداً عنه، وجهٌ عابس لا يعرف الابتسام، ومما يزيد في بؤسه وكآبته انصراف الناس عنه.

يعيش مع أختيه العازبتين ، وأخ يه عبدالغفور في بيت مكون من غرفتين وعلية، و تسكن في العلية السيدة باسمة زوج أخيه عبدالغفور، وعبدالغفور في السبعين من عمره وياسمة في العشرين بيضاء مشرقة ، وجهها يفيض حلاوة وهي طرابلسية ، وأمام عليتها علية تواجهها يقطنها عامر، زوجها ينام متعباً عقب وصوله وتناول ه العشاء، أما هي فتضع عليها ثيابها وتنزل إلى الزقاق، عامر بالانتظار، يمد لها السلم الخشبي من الشباك، تصعد عليته تمضي معه بضع ساعات ملتهبة ، ثم تعود إلى فراش زوجها تفوح من جسدها روائح جسد عامر، منتشية كسكرانة تلقي نظرة على الشيخ البائس ال هرم، تهز رأسها بحنق ، محاولة إبداله بذاك

الذي مازالت تحس بالألم الخدر الذي بعثه في جسدها، تتحسس موضع آثار الأصابع التي كانت تعصرها قبل دقائق.

في سرها تشتم والديها اللذين ألقيا بها بين يدي عجوز، أشبه بطاحونة مهجورة فقدت رحاها ، ونضبت مياه النهر الذي يديرعجلاتها، تشكر الله أنها وجدت عامراً وهي كثيراً ماتسائل نفسها(أترى ما أفعله معه معصية وزنا، أم أنه حق طبيعي لي وأنا أعيش مع رجل أجبرت على القبول به، كما أنه فقدَ رجولته منذ زمن طويل؟).

جو الساحة محافظ ، وهي لا يمكنها التنفس مع وجود أخت زوجها خديجة «أو مايسمونها أم علي شتير» وهي أشبه بالمرحوم اسماعيل ياسين مع شتر في إحدى عينيها، ودمع ة واقفة في المآقي تأبى الهبوط، وعندما ينظر وضاح إلى وجهها يدهش همنظر العين المفتوحة والدمعة المتجمدة، وما أن تبتسم حتى ينحرف شدقها للجهة الثانية ، ابتسامتها لم تكن تُوُ إلاَ نادراً، فوجهها مكفهرٌ كأخيها مهاب، صوتها يلعلع نحو السماء عندما تتحدث، أما عندما تبدأ المشادات فالحارة تستنفر لصراع بين أخت وامرأة أخ لاتعبأ بها ولا بأخيها ، فصبية الحارة القمرية الوجه باسمة ، تضحك بسبب ويدون سبب ربما لتغيظها، أم علي اكتشفت ما يجري من خديعة لأخيها، من قبل امرأة لم تكن يوماً معها على وئام ، وهي تدعوها بالمستفشرة، لكنها لم تكن تذكرها بالسوء أمام الآخرين، وأغمضت عينها الوحيدة عنها طويلاً، خشية الفضيحة والإهانة في حارة ضيقة ، لكنَّها لم تخرج من دائرة تفكيرها ، وعندما أخذت العلاقة بين ساكني العليتين تزداد اشتدت مراقبتها الخفية، وأخذت تُلمح لها بداية بشكل موارب ، ثم ضبطتها ذات يوم وهى تهبط من العل ية على السلم الخشبى، عقب انتهاء الليلة

المتأججة؛ أم علي شتير تنتظر. آن وصول باسمة الباب فتحتهلها، ولم تتحدث بشكل مباشر أبداً، أحضرت لها صرة الثياب وطلبت منها أن تذهب في زيارة طويلة لأهلها، وهذا ماجعل باسمة ترحل بهدوء إلى بيت أهلها في طرابلس، ولقد حاولت أم علي ألا تدعها تتوى عامراً قبل رحيلها، لكن باسمة أصرت وقالت بأنها لن ترحل قبل رؤيته ، وإلاَّ ستتسبب بالفضيحة لنفسها وللجميع.

لم يكن عامر قد استغرق في النوم عندما سمع قرع حصى صغيرة تتساقط على زجاج النافذة ، أنزل سلمه سريعاً وهو يهجس شراً، وعندما وصلته أخبرته دموعها أنها راحلة ، وأنه لن يراها بعد اليوم، طلبت منه الحذر أو الرحيل لأنَّ أم علي اكتشفت أمرهما، وإذا ماعلم -خرطأ- بالأمر فستكون العاقبة وخيمة، مع الكثير من الدموع ودعته وفي اليوم التالي رحلت إلى طرابلس ثم لم تعد.

عامر يعلم بأن – خرطأ – قد يرميه بالديناميت.

باسمة أقامت عدة سنوات مع السيد عبد الغفور وعائلته ثم رحلت إلىأهلها، زوجها شيخ عنين، وعشيقها خشي من معرفة مهاب بالأمر، أم علي هددت باسمة بأنَّ العلية ستنسف بمن فيها إذا لم تغادر هي المدينة ، وبعد مغادرتها سيكون لهم شأن آخر مع عامر فهو سيدفع جزاء فعلته.

ترك عامر المدينة إلى دمشق لمدة تزيد عن العشرين عاماً، انتقل بعدها إلى مدينته، بعد أن مات كل من بإمكانه أن يسبب تهديداً له -خرطأ- وأم علي. وبعد أن تبدلت المدينة الصغيرة لتصبح قرية متورمة بال بيوت الاسمنتية، وحتى الساحة التي ترمز لتوروزا القديمة تبدلت بعد ردم شاطئها، وضاعت صخرة الخلقين، وفتح طريق للسيارات في سور المدينة

الغربي، لكن علية عامر بقيت في مواجهة علية باسمة ، تنظر كل واحدة إلى الأخرى، وتحملان سراً لعاشقين رحلا مبتعدين، وعامر لم يعرف عنها أمراً بعد رحيلها، ولكنها بقيت محفورة في أعماقه، فهو يذكر أنها أول من أخذ بيده على درب الرجولة ، وأول من علمه الدروس الصعبة ال ممتعة والمحرقة في الحياة، وأول من فتح عينيه وغزا قلبه، ولعه بها ألغى تفكيره، وبعد رحيلها حبس نفسه في عليته زمناً ، يستحضر طيفها نهاراً ويراقب عليتها ليلاً رغم أن أم علي أغلقت النافذة المطلة على ا لعلية وسمَّرتها، ولم تفتحها أبداً حتى آخر يوم في حياتها.

أم عامر أحسَّت بأن تبدلاً طرأ على ابنها، إحساس الأم بالخطر الذي يحيق بأ ولاده ا، ذات يوم أتت للتحدث إليه عن التغير الذي طرأ على سلوكه، وهو لايعرف أبداً إن كانت والدته تدري شيئاً عن علاقته بباسمة ، فهي لم تكن لتلمح له، لكنها أخذت تُروح عنه محاولة إخراجه من عزلته، اقترحت عليه زيارة أخته المتزوجة في دمشق، ومع ابتعاد باسمة نما لدى عامر إحساس عميق بأن الرحيل إلى دمشق سيكون فيه بعض السلوى ، وابتعد لكن رحلته تلك استمرت طويلاً ؛ حيث أكمل دراسته الثانوية ثم الجامعية ثم عمل في دمشق وغرق في زحمة المدينة.

امرأة علمته الكلام
علمته التهاب الشفتين
امرأة من برج القوس
رمته بأول سهم
على يدها تعلم فنون العشق
كانا يسيران على ضفاف الليل

إلى حواف الحلم

دمٌ على الطريق

ولهٌ حدّ الموت

جسدان تجمعهما الرياح

تصعد نجمة تهبط نجمة

جسدان يتقلبان على المواقد

لهبٌ رعدٌ لعبٌ

غابةٌ دغل امرأة

لم يبق سوى الجنون

ونافذة علية موصدة.

زمن المغفرة

عبد الغفور

عندما انتشرت الشائعة عن عبد الغفور لم يصدق أحد الأمر، وأمر أبو وضاح أهل بيته ألا يتحدثوا بالموضوع، ومع ذلك فالشائعة انتشرت لأيام في سماء المدينة ثم خبت.

الغريب في الأمر أنّ الرجل العجوز زوج باسمة ، والذي يتساقط الورع من لحيته البيضاء، بدا التأثر واضحاً عليه بعد رحيلها، ونمت لديه تصرفات تبعث على الريبة، ذات يوم جمعة وقبل الصلاة بقليل، جلس على كرسي مسنداً ظهره إلى باب دكان قرب بوابة الساحة، اقتربت طفلة من أطفال الحارة، ناداها مقدماً لها قطعة سكر، أجلسها في حضنه، الطفلة في الخامسة من عمرها، شقراء ذات عينين زرقاوين كاللعبة، وضع يده على رأسها، يرقيها؟ حرارة الطفلة انتقلت إلى الشيخ الذي رحلت زوجته منذ مدة ليست بعيدة، أسند ظهره على كرسيه ، ارتفع فستان الطفلة وأخذ الرجل العجوز يرتجف وهو يمسد على شعرها وينظر نحو البعيد، ازداد ارتجافه، احمر وجه الطفلة، دمعت عيناها ، احمر وجه الشيخ وتوهج، علا صوت الطفلة بالبكاء، استيقظ الشيخ من حلمه ورحلت حور العين، هُرع صاحب المتجر، عاد العجوز إلى وعيه أنزل الطفلة إلى الأرض وسوى قمبازه، وحاول ثانية قراءة الفاتحة للطفلة كرقية ثانية ؛ لكنها انفلتت من يديه مذهولة تنهمر دموعها وهُرعت باتجاه المنزل.

قال صاحب الدكان:

– لا حول ولا قوة الا بالله، ما هذا يا حاج عبدالغفور ؟

- كنت أرقيها فغفلت وأصابتني سنة من نوم ثم صحوت على بكائها.

قال صاحب المتجر:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ربنا اعف عنا إنّا كنا من الظالمين.

نهض الشيخ متثاقلاً يجر ثوبه وساقيه، مستغرباً كلمات عبد الستار، فهو لم يشعر أنه قام بعمل مخزٍ يستدعي التساؤل، تابع طريقه باتجاه المسجد وصاحب الدكان يلحقه بنظراته ويهز رأسه ويستغفر الله ، ومع ذلك عندما دخل الشيخ المسجد قال عبد الستار لنفسه:

رب اغفر لي فلقد ظلمت الشيخ في نفسي، ربما كانت قصته صحيحة. وتلا «ربنا اغفر لنا ذنوبنا وكفر عن سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار».

وفي المسجد تحدث الشيخ إما م المسجد عن الفضيلة والعفة والطهارة، عن طهارة النفس قبل طهارة الأبدان، وعن طهارة الروح قبل طهارة الجسد.

((إن النفس أمارة بالسوء وتقودنا إلى الضلال ونحن قاب قوسين أو أدنى من الجحيم، من نار جهنم)) رأس متوهجٌ وذقن بيضاء تضفي عليه هيبة تحت عمامته البيضاء ،وما إن انتهت خطبته حتى دب الإيمان والرهبة في قلوب مستمعيه. واقترب عبد الستار منه باكياً:

- ادع لي يا شيخنا فلقد ظلمت الرجل الطاهر عبدالغفور وإنني كنت من الظالمين.

قال الشيخ:

- إن الله عفو يحب العفو وهو غفور رحيم. استغفر الله يابني واستسمح من عبدالغفور وسيغفر الله لك بإذن الله.

الأمطار في الخارج غسلت سماء المدينة، أما الطفلة روعة فلقد ارتفعت حرارتها تلك الليلة حتى وصلت درجة أعلى من الأربعين، أمها تقول رأسها

يغلي، روعة أصيبت بهذيان وأحلام رعب متكررة، رجال يرتدون عباءات سوداء وقبعات بيض يريدون سلخها وأكلها، وقد أوقدوا ناراً ، الفتاة تصرخ في كل مرة حتى يستيقظ أهلها ، قصت على أمها قصة أحلامها لكن قصة الحاج عبدالغفور مسحت تماماً من ذاكرتها.

وفي المساء صفا الحاج عبدالغفور لنفسه، و استغفر الله كثيراً، وهو لا يعرف ما الذي جرى تماماً ، باسمة لم تستثره رغم جمالها وفتوتها، قال لنفسه هذا الحدث لا بد وأن يكون في الحلم، حورٌ عين وجنان خضرٌ؟ لا لا لا. لا يمكن أن يكون الأمر حقيقة فآخر مرة شعر بفحولته يعود إلى عشرين سنة مضت ، قبل وفاة زوجته الأولى المرحومة سليمة، أما مع باسمة الملتهبة والتي تطيب لها نفسه،فلم ينفع العسل ولا الزنجبيل ولا القرفة حتى ولا القريدس أو بطرخ السمك، ومع ذلك استغرب بكاء الطفلة ونظرات عبد الستار إليه.

محاولاً استرجاع اللحظة التي دعا الطفلة فيها للجلوس في حضنه، ثم إحساس بالتشوش تلته الرؤيا «حوريات وماء وخضرة، تدنو حورية منه تلتصق به، وعندما اقتربت لحظة النشوة أوقظه بكاء الطفلة »، هز رأسه ثم عاود استغفلو الله، صلّى وقرأ الكثير من الآيات والتمائم حتى كاد الليل أن ينتصف فسقط في النوم.

زمن الوقيعة
(الكريكيزة) خيال الظل

في إحدى زياراته للساحة، آن عبوره مقهى البغدادي توقف أمامه، عبر إلى الداخل إلى ذات الزاوية التي شاهد فيها طفلاً عروض الكريكيزة، في طفولته لم يكن ينظر إلى سليمان المعماري كإنسان عادي، فهو يرى فيه رجلاً أشبه بالساحر الذي يبعث الحياة في أشخاص وأخيلة خلف شاشته، يجلس وراءها مع مخلوقات أصبحت أليفة للأطفال، وأحياناً للكبار، ف ي توروزا سينما وحيدة، تعرض فيلماً واحد اً كل عشرة أيام، تبقى الكريكيزة التسلية اليومية، خاصة وأن الدخول إليها بـ فرنك أو بنصف فرنك، والسينما بربع ليرة، والذهاب إلى السينما يعني الامتناع عن المصروف لمدة أسبوع، سليمان الرجل الصامت جار لهم، وهذا ما أعطى وضاح ميزة حضور الكريكيزة مجاناً في كثير من الأحيان.

وضاح يستعيد تعامل سليمان مع الشاشة، مع عواظ، وكركوز، والمدلل، وعنترة، والزبرقان، ويرى أمراً في غاية الغرابة والدهشة.

معظم حكاياته ساخرة، يمتلك القدرة على تقليد الأصوات من الناعم إلى المتوسط إلى الغليظ. يداه تلعبان بكركوز وعواظ والمدلل الصغير الشقي والأكثر سخرية ودهاء.

تبدأ قصص الاقتتال والنكد ، تُنصب الأفخاخ، جسده يقوم بمهمة تثبيت بعض الشخوص على الشاشة، وفمه يصدر أصوات متباينة حتى أنه يستخدمه كالمزمار.

يمتلك امكانيات صوتية وبهلوانية، يُشرك كل جزء فيه ومنه في هذه اللعبة، في بعض العروض تبدأ المعارك وتتبدل الشخصيات، ويحتاج الأمر هنا إلى إدخال شخصيات محاربة تدافع عن الحق وتنصر العدالة.

سليمان الرجل المدهش، يتميز بملكات مذهلة تراه خارج مسرحه صامتاً شارداً عن الناس، يفكر يتأمل، ينسج قصصه التي سيتحدث بها في اليوم التالي.

سأل وضاح والده عن جارهم سليمان، وكيف تعلم هذا الفن :

ابتسم والده وهو يقول: فيها تسلية ومتعة لكنها ملأى بالخرافات،

أتى أبو سليمان إلى المدينة رجلاً غامضاً لا يُعرف عن ماضيه أي أمر، انتشرت حوله (الشائعات) الكثيرة؛ لكنَّ ذلك لم يمنعه من الاستقرار في المدينة والزواج فيها، وهو أول من أدخل الكريكيزة إلى المدينة، وورث سليمان عنه تلك المهارة وطورها ، بدا أبو سليمان رجلا مغامراً ذ ا شخصية محببة، سريع البداهة حاضر النكتة ، لكنَّ ابنه سليمان نما هادئاً طيباً بسيطاً، تعلّم كافة فنون والده وتفوق عليه، وصار له سمعة في باقي المدن السورية وحتى في طرابلس ، حيث تأتي الوفود لحضور كريكيزته المتنوعة والمبدعة، وعندما عزم على الزواج ، أحب امرأة ذات سمعة وأصل. رفض أهلها ابن القادم الغريب، الذي يشغل الكريكيزة وهم عائلة معروفة تعد ذاتها من جذور المدينة، لكن ما عرف عنه من أخلاق طيبة جعلهم يوافقون بعد تدخل أحد وجهاء المدينة، وأنجب أطفالاً وبنى عائلة طيبة، لم يؤذ أحداً في يوم من الأيام، ولم تشب ماضيه شائبة.

أتى والده لغزاً وانتقل اللغز إليه ثم غادر بعد سنين طويلة لغزاً ، ترك وراءه أسرة متماسكة، ثلاثة شباب وثلاث فتيات.

وضاح يعرف باقي الحكاية ويذكر جيداً أن صاحبها ترك وراءه إرثاً من التسلية مليئاً بالنقد، والسخرية، والجدية، والمعارك ، عرضاً جديداً لقصة جديدة يومياً، عروضاً بقيت نتفٌ منها في الذاكرة الشعبية، لم يدونها أحد.

وضاح يستمع إلى أحاديث الناس وهم يقولون: لو كتب أحد ما يؤلفه سليمان ويعرضه لتجاوز آلاف الصفحات.

لا يصدق أحد أن هذا الرجل أميٌ لا يعرف القراءة، رغم أنه يتحدث بلغةٍ ملأى بالكلمات الفصحى، وينطق بأبيات من الشعر لعنترة وسواه، ملأى بالشتائم، والكلمات السفيهة المرمزة، مراعياً وجود أطفالٍ يحضرون عروضه اليومية.

عروضه تتحدث عن عنترة، والزير سالم وسيف بن ذي يزن وملكة سبأ والنبي سليمان ، لكن خارج عروض المعارك والتاريخ، تتجلى روح السخرية، والمنتصر الذي لا يهزم هو الطفل المدلل، وكركوز هو الطيب الساذج، والداهية هو عواظ، الأطفال يتعاطفون مع كركوز ضد عواظ، لكن المستفز الحقيقي هو المدلل.

رغم مرور هذا الزمن الطويل، يتذكر وضاح المتعة التي كان يشعر بها أثناء تلك العروض، والتي لا تعادلها متعة لفيلم سينمائي، فالإثارة مستمرة، الأبطال على المسرح يخلقون الحدث، تتصاعد الحركات مع الصوت، الصورة مع الحركة، تنوعٌ في الأصوات، وتنوع في الحوار والأفعال، بما يناسب الحدث، حوارٌ مع الشخصية الذكية أو الغبية، تقليد صوت الإنسان والطير والحيوان والطبيعة، يقلد صوت عبلة، وهي تدعو عنترة لدفع الأذى عن القبيلة وإلحاق الهزيمة المنكرة بالأعداء ودفع المهر لوالدها ثم يقلد صوت عنترة مردداً ومنشداً.

هلا سألت القوم يا ابنة مالك

إن كانت جاهلة بما لم تعلمِ

يخبرك من شهد الوقيعة أنني

أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وللكركيزة في المقهى ستارة قماشية في الزاوية، الكراسي تصطف، ومعظم الحضور من الأطفال في سن السابعة إلى المراهقين، وكثيراً مايحضر بعض الشبان.

وهناك دائماً الجديد، تأليفاً وإبداعاً، ونسجاً على منوال ألف ليلة وليلة، والزير سالم.

فصول طويلة تزيد على الساعتين، وفصول قصيرة تنتهي خلال ساعة من الزمن، والبداية مع ذات الممثلين وهم في معظم الأحيان كركوز وعواظ والصغير المدلل، أما التهريج فيختلط بكلمات فاحشة على لسان طرمان كما يستخدم الخازوق للعقوبة ، تشويق لما سيعرض في الغد، وحديث عن فصول تالية، فـفصول الحرب غالباً ماتقدم في جزئين . والعروض الطويلة والقصيرة قد تختم بمبارزة، وفي الحروب يصبح كركوز وعواظ والمدلل جبهة قوية واحدة ، يقفون في صف الأبطال، فهم يناصرون عنترة والزير سالم وسيف بن ذي يزن.

وفي المعارك يأتي عتريس ملك الجن الأحمر ثم ملك الجن الأزرق، ويظهر عنترة وشيبوب، ويقع العفريت في حب ابنة عواظ معوظة ويختطفها، والحروب تتواصل حتى نهاية الفصول، وقد يؤجل قسم من المعارك إلى يوم آخر ، حيث يؤسر عواظ وهو يحاول إنقاذ ابنته. وهنا ولمدة يوم كامل بإنتظار العرض الثانى تصل الرجاءات إلى السيد سليمان

من المتفرجين أن يفك أسر الأسير ين، وأن يع ودا بالسلامة وألا يسمح للأعداء بالانتصار.

والسيد سليمان يبتسم هازاً رأسه وإذا تكلم فسوف يقول:

(الأسيران مرصودان ولاندري إذا كان بالإمكان فك الرصد وإبطال السحر). وقد يقول هو التاريخ ولا يمكنني التدخل بالأحداث، لكنني سأحاول وأسأل الله أن يمكنني من ذلك؛ فالراصد عفريت شرير كافر وقدير، وقد تحرر من القمقم وإعادته ستتطلب الكثير من الجهد.

وهنا تسري الشائعة في المدينة ؛ وكأنَّ مايجري هو حقيقة تعيش في عالم موازٍ، بين عالم في الواقع وآخر في الخفاء، وضاح ورفاقه يصدقون وينتظرون، وحتى الشبان الذين يزيدونهم عمراً يصدقون، وكأنما العالم الذي يخلقه سليمان هو عالم حقيقي، وكل كلمة يقولها سليمان صادقة، ولاتعود القصة كر يكيزة وإنما معركة تدار بين العرب والأعداء؛ تخرج من مسرح الظل لتصبح واقعاً، وسليمان هو المسؤول عن حسمها، فهو المسيِّر لكركوز وعواظ والمدلل، وعنترة وعبلة ولكافة الأبطال على مسرح.

حياة الناس في الساحة وأجواؤها المغلقة، والأقبية المظلمة التي تقع أسفل البيوت، خلقت قناعة أكيدة لدى الكثيرين بأن الجان يعيشون في تلك الأقبية، يتجولون فيها بحرية عندما يشاؤون خاصة في الليل، والأمر الذي يجعل تلك القناعة أشد رسوخاً هو أنه مامن رجل في الساحة أو امرأة إلاّ ولها خبرة أو حادثة توحي بأنها رأت الجان ، أو تحدثت معه أو عمل لها مقلباً، فكم من امرأة تحدثت عن طنجرة طعام تمشي لوحدها خارج المنزل، ثم تعود فارغة إليه وكذلك الحلوى كانت تؤكل عن النار ، أضواء تطفأ وأخرى تولع، أدراج تفتح ثم تغلق، بعض الجان يشارك في الطبخ والكناسة

ولهم احتفالاتهم، يسمعونهم ولايرونهم، أماكن سكناهم معروفة في الأقبية، وإذا ظهروا فإنَّ ظهورهم أشبه بإنسان له هيبة كشيخ جليل ، أو فتاة حسناء أو قطة سوداء أو ماعز ، وسليمان يعرف كل تلك الأمور وعندما يتحدث عنهم لم يكن أحد يشك بأنَّ الأمر وهمٌ أو مزاح، وكثيرون يجزمون بأن له علاقة مع الجان، ويقولون سليمان «مخاوى» تربطه صلة وأخوةٌ مع الجان.

في العروض الليلية التي يخص بها الكبار يتحدث بكلمات فاحشة وماجنة، حيث تعود حكايا ليالي ألف ليلة الفاحشة للظهور، وتعرض حية حتى صياح الديكة في الصباح.

حكاياته تشمل الكثير من حكايا العرب وسيرهم ومعاركهم مع الروم والفرس.

ورغم اشتراك المردة والعفاريت وغلبتهم في الفصل الأول، إلاَّ أنَّ النصر في النهاية للأبطال الشجعان، سليمان لا يتعب من ا ستخدام يده وفمه وصدره والشموع، يحرك بطلاً اثن ين ثلاثة، يضيء بمصباح الكاز اليدوي. صوته يعلو، ويهبط، ينحف مع المدلل يتراخى مع عواظ، يشتد ويخشن قليلاً مع كراكوز، يهدر مع عنترة، يصهل مع الأبجر، ودائماً لا نسمع صوت سليمان الحقيقي بل صوت بطل من أبطاله، وحتى إذا تحدثت عبلة نسمع الصوت الأنثوي الناعم، وهو ينطق الشعر بصوت عنترة، وصوته رخيم ذو طبقات متعددة، سليمان لم يُعلم حرفته لأحد من أولاده، والدور الأكبر يعود لزوجته القوية المسيطرة التي منعت أولادها من تعلم المهنة، ففي داخلها تخجل منها، وما أن توفي سليمان حتى أتت بالصندوق،

وطلبت من أولادها أن يحزموا ما فيه ويلقوهفي البحر، وامتثل الأولاد لطلب والدتهم.

ورغم أن عمر هذا الفن يقال بأنه يوازي عشرة قرون ، إلاَّ أن سليمان أضاف عليه الكثير ، وبعد رحيله اختفت قصصه ماعدا نتف بقيت على ألسنة الأطفال الذين كبروا ، وماتبقى منها ألقي في البحر مع صندوقه العجيب.

زمن المغنى

العم أحمد

مدينة أشبه بمسرح العرائس، خليطٌ من بشر م متطرفون في كل شيء، ضيق المدينة وأسوارها وعزلتها رغم البحر والريف جعلت ناسها عصابيين ، يثورون لأتفه الأسباب، الأمور الصغيرة يتداولها الصغار والكبار وت تحول إلى قصة، تنبت لها أجنحة تطير بها من منزل لآخر، أما الأمور الكبيرة فتسكر لها المدينة.

لكن أكثر ما كان يُسكر المدينة صوت العم أحمد، الرجل الضرير الناحل الذي حفظ أغاني أم كلثوم، يغني وهو ي مشي وعند عبوره الساحة يتوقف الناس عن الحركة. بسمة ساخرة تجلل محياه، عيناه المطفأتان تبتسمان خلف بياضهما، وصوت يملأ قبة سماء دقيانوس الخيالية' يصطدم بالقلعة والبرج وينتشر نحو السماء، صوتٌ أوصله فيما بعد في أيام الوحدة إلى القاهرة، يومها خلع سرواله المُطوى ، وأُلبس طقماً وقميصاً وربطة عنقٍ وطربوش، لكن الغربة لم ترق له، فهو كأعمى لا يهمه عز يلقاه في القاهرة، حتى ولو كانت قاهرة المعز لدين الله أو قاهرة عبدو الحامولي وأم كلثوم.

أحس بالغربة المضنية فعاد إلى مدينته الصغيرة التي عرفتها عصاهُ شبراً شبراً.

أحمد يبتسم ، يضحك خلال سيره وحيداً في معظم الأحيان، ويبدو أن أحداً ما من عباد الله الضالين جعله يتعلق بسيجارة الحشيش.

أحمد ينصت، يستمع للعالم، يلتقط أدنى الأصوات والهمسات ، وعندما يقولون له : هش، يظنها كلمة السر لوصول سيجارة الحشيش، الكلمة

تجعله يتيقظ ،يزداد تركيزه وانتباهه للمحيط ؛ فيجيب هو بالتالي هش، ولم يكن الأشقياء من الأطفال لي عرفوا بقية كلمات السر، لذا كانت اللعنات تمطر من السماء عندما يكتشفهم، وهو يقول «عرفتك، يا قليل الأصل، وسأخبر والدك، ياويليك إذا كمشتك».

صوت أحمد الساحر جعله محط إعجاب وتقدير لكل أهل المدينة، وعندما ظهر الراديو صار رفيقه، وعندما أتت المسجلة صارت أم كلثوم رفيقته. يستمع إلى أغانيها أثناء عبوره أزقة المدينة وساحتها، لكنه لم يكن يغني إلاّ في مكانه المفضل مستنداً إلى جدار المقبرة تحت شجرة الزنزلخت التي عرفت باسمه: شجرة السيد أحمد.

العصافير تقف صامتة عندما يغني، وتغرد في فواصل توقفه، تحط على شجرته وعلى أشجار الزنزلخت المجاورة، بعضها يهبط إلى جواره، حتى عصافير الدوري الشقية تتوقف عن الطيران، عن عبثها ومناوراتها المستمرة، أما البلابل وفي محاولة منها لتقليده فكانت تصدر صفيراً يشبه الإيقاع الذي يبدأ به.

–يا ظالمني.

كلمة يا ظالمني ترحل في سماء المدينة، النساء ينظرن في عيون الرجال، والرجال في أعين الأسياد، والأسياد في أعين الحكام، والحكام في أعين الله. وأحمد بلا عينين ينظر في العيون كلها.

يا ظالمني ، صوت يتردد، ترفرف معه الثيابُ المنشورة على حبال الغسيل أعلى المنازل التي اعتلت القلعة ، والمطلة على الخندق المجاور للمقبرة، والنسوة يختبئن خلف الملابس المنشورة وخلف الشعريات التي تحجب الشبابيك، قلوبهن مجرحة وكأن تواطؤاً خفياً قائمٌ بين السيد أحمد الذي يشكو ظلمه من الجميع : نسوة وقدراً ورجالاً ، والنسوة اللواتي يشكين الظلم من الرجال والقدر الذي جعلهن إناثاً. في تلك اللحظات ينسى الجميع

أحمدَ المتعبَ الذي لا يملك مأوى، والذي رفض العز والغناء ورفض الإذاعة والتلفزيون، وآثر أن يرتاح نهاراً تحت شجرة الزنزلخت ، وليلاً تحت الدرج في منزلنا بلا فراش أو غطاء. ويرون في أحمد الذاكرة المدنية للمدينة البائسة، والذي اختار أن يغني للموتى لعلهم يحسون به أكثر.

أحمد يلبس سروالاً وقميصاً أبيض صيفاً شتاءً، لا يعرف السترة ولا كنزة الصوف، صوته يجعل الجميع يرتجفون وهم يشعرون أنهم في حضرة رجل له سطوة كبيرة عليهم، الجميع يحسون أنهم أمام رجل يتمتع بقوة خارقة، توقفهم تخرسهم تصيبهم بالخشوع.

«وتنساني وتهجرني،
وتغضب لما أقلك يوم.. يوم
يا ظالمني».

ويتجمع الناس ويتكاثرون ، يلتفون حوله أمام جدار المقبرة، يشكلون قوساً يحيط به يكبر القوس ويغلق الشارع، أحمد يغني ويعلو صوته، يُبكي العشاق والمظلومين والبؤساء، يقف الجميع صامتين مصغين في حضرته ، الكبار والصغار يُهرعون إلى الدوائر التي تأخذ بالكبر، يغني أحمد ساعة تلو ساعة ثم يصمت فجأة.

إنه يرفض الهبات ويكتفي من الحياة بفتات من الطعام تكفي جسده الناحل، ولفافات تبغٍ عربي يلفها بيديه بحرفية ثم ينفث دخانها بقوة وثبات ، تخرج مع زفراته المجرحة أو تتصاعد بدعة وفق مزاجه وتداعياته، وعندما يصمت يرحل بعيداً ناظراً بعينيه المبيضتين إلى ما بعد السماء.

من أنت؟

يجيبه:

- أنا وضاح ياعمي.
- هِم ... هز برأسه مبتسماً أعطني يدك يا ابنَ أخي.

أمسك بيدهوقال:

– أتدري ياوضاح بأنَّ والدك لم يولد كفيفاً مثلي بل أصابه المرض في السابعة من عمره، إنه يتعامل مع العالم بشكل مختلف عني.

بدأ يرندح أغنية ثم توقف.

أتراك تشارك الأولاد عبثهم وشيطنتهم؟

– لا.

– أتريد أن تسمع بعض المقاطع من الأغنية الجديدة أنت عمري؟

لم يكن هناك داعٍ للموسيقى ، وعند الحاجة يرندحها هو ، ولم يكن تأثير تلك الأغنية عند الناس بأقل من أي أغنية أخرى يرددها ، بعدأن أدى بعض المقاطع التفت إلى وضاح:

أتدري يا ابنَ أخي: إن أغنيتي المفضلة هي يا ظالمني!

أتدري لماذا؟ لأنني عاتب على كل شي ، منذ يوم مولدي إلى اليوم وأنا أحس بالظُلامة، في صغري حسبت أنّ الناس كلهم عميان، ولم يكن عماي يشكل مشكلة لي، لكنني بدأت أشعر بالصعوبة والمعاناة، عندما صرت أسمع كلمات الشفقة من والدَّي والناس.

–مسكين أعمى.

– الله يعينه.

«ياويلك يأم أحمد، الله يكون بعونك وعون ابنك، مسكين مين بدو يعتني فيه بعدك»؟

امرأة الأخ!

التفت إلى وضاح وبسمة على شفتيه:

– أنت تعلم جدتك، طيبها وعاطفتها.

– توقف هنيهة ثم أكمل.

ومع ذلك فلم أكن لأدرك معنى أن أكون أعمى ، أو أن أرى أو أن أدرك ماهية الرؤية، وكيف يرى المبصرون.

ورغم محاولات أقراني إفهامي معنى الإبصار، حتى والدك الذي مرَّ بتجربة المبصر ثم الشحيح البصر لم يتمكن من إيضاح معنى الرؤية لي، ولا أعتقد أنني بحاجة إلى إدراكها، لكنني كنت أستغربها . منذ طفولتي أحسست بأن هناك فارقاً يجدونه هم ، أما أنا فلم أكن أتبينه، ومع ذلك أدركت فوارق أخرى؛ أولها أنني متفوقٌ على رفاقي في أمور كثيرة، حفظت القرآن، وأغاني السيد درويش وأم كلثوم وعبد الوهاب وغنيتها جميعها، وأم كلثوم بقيت أثيرة لدي، وعندما سمعت أغنية يا ظالمني شعرت بأنها تغنيها لي، أنا، وحدي.

توقف عن الكلام برهة ل يستشعر تأثير كلماته على وضاح، نهل من سيجارته نهلة طويلة ثم تابع:

في طفولتي أحسست بامتلاكي ملكات لم تتوفر لدى أخوتي أوعند الآخرين، أخذت أتعرف القادم من وقع قدميه، وأبادر الزائر القادم بالتحية قبل أن يتحدث ذاكراً اسمه، وأعبر الاختبارات التي يخضعني لها زملائي خطوة خطوة، أما تمييزي للبشر من أصواتهم فغدا أمراً في غاية السهولة، اعتدت التعرف إلى رفاقي من لمسة يدهم، ومن روائحهم، صار بإمكاني أن أعد خطوط راحات أيديهم وأحفظها. رفاقي يقولون: إما أنك ترى وتنكر ، أو أنك تتعامل مع الجن والعفاريت، وعندما نسير معاً أحدد موقعي منهم سماعياً، أحس بحركة الهواء التي تنشأ مع تحرك أجسادهم، إلى جانب سماعي لوقع أقدامهم، وأرفض تقديم مساعداتهم لي.

ورغم ما يدعون أو ينظرون إلي من نظرات شفقة ، أشعرها، وأحس بها من تبدل أصواتهم وتنهداتهم، والتي كثيراً ما آلمتني، لكنني اعتدتها مع الأيام ولم تعد توجعني.

مع الزمن تغيرت الأمور، صرت أتألم لآلامهم، مدينة يعض الجوع بطون ساكنيها، قلة من الناس ميسورة، وما تبقى يعيشون هموماً ومشاكل يهمس بعضهم بها إلي؛ حتى لكدت أصبح ذاكرة الكثيرين منهم، لكن ماذا يمكن لأحمد الضرير أن يقدم سوى المواساة وسوى كلمة يا ظالمني.

ابتسم أحمد وبانت نواجزه ، رفع عينيه نحو الأعلى ، فبانت كرتان مبيضتان لا يكاد يرى معهما سواد، إحساس بالرضى يجلل محياه، وهو يرى أن الناس الذين اعتاد طفلاً الاستماع إلى كلمات الشفقة الجارحة تنطلق من أفواههم همساً تجاهه؛ قد تحولوا اليوم وصاروا يبثونه همومهم وأحزانهم، في لحظة ما أدرك بأنَّ إحساسه لم يتغير إلى شفقة عليهم ، بل محبة بدل الكراهية التي كادت تنمو تجاههم ذات يوم.

التفت إلي وضاح قائلاً:

-أتدري يا ابن أخي أنا لم أتحدث بهذه الأمور لأحد من قبل؟

إحساسٌ مبهم يخبره: لعلَّ شبهه بوالده جعله يبوح له عما في داخله.

في يوم من الأيام اشتدت برودة الجو ، تساقط ثلج جلل المدينة واستمر هطوله أياماً ، والعم أحمد يتجول تحت الثلج ، عصاه تحت إبطه الأيسر ، يفرك يديه مبتسماً يجوب الساحة ، الأزقة، السهلة والبرانية يسَّلم على الناس، بدا مشرقاً أكثر مما اعتادوه، وفي الأيام الثلاثة الأولى لتساقط الثلج أضحى المتجول الوحيد في المدينة؛ لكنَّه لم يكن يصطحب معه المسجلة ولا صوت أم كلثوم، بل ماشياً يهدر ببعض مقاطع من أغنياتها ، يتوقف أمام كل دكان يلقي التحية على أصحابه، بدا أنه أمام مهمة طويلة، بعد انتهائه من حي الساحة ذهب إلى باقي الأحياء، مرَّ أمام كنيسة العذراء توقف إلى جوارها ، ثم عبر مدرسة الراهبات إلى جدار المقبرة مواجهاً الخندق وسور المدينة الشرقي، أنصت إلى الأصوات، طرق بعصاه الأرض، تلَّمس شجرته ثم أنصت من جديد! العصافير ما عادت تغني.

توقف أمام باب المقبرة تمتم بعبارات كثيرة لا غناء فيها ، ذكر أسماء بعض الموتى وألقى عليهم السلام، خطا باتجاه المقبرة خطوات قليلة ، أدار أذنيه محاولاً التقاط بعض الهمسات التي ربما اعتقد أنها تصله، ثم انصرف إلى مأواه تحت الدرج في منزل أخيه، في تلك الليلة الصقيعية حاول أبو وضاح وأمه إدخاله المنزل فرفض وهو يقول: لن أغادر سكني فلقد اعتدت المكان.

في صبيحة اليوم الرابع امتلأت الفسحة السماوية المطلة على الدرج بالثلوج، أحمد جالسٌ يمسك عصاه بكلتي يديه، شفتاه تنفرجان عن طيف ابتسامة ساخرة وعيناه ازداد بياضهما، وعلى رأسه تراكم ثلج ، تساقط على أنفه وغمر قدميه. صرخ وضاح عندما أتى ليضع أمامه طعام الإفطار:

-عمي آه هـ هـ ياعمي.

... ولولت الأم ، وهُرع الجيران لملاقاة أحمد الذي غدا أشبه بحكاية صغيرة في مدينة بحرية مجللة بالبياض.

أما شجرة الزنزلخت على حافة المقبرة والتي اعتاد أحمد الجلوس في ظلها، فلم تزهر في الربيع، ثم يبست في الشتاء التالي، كما أن العصافير ماعادت تحط عليها ، ثم اقتلعها أولاد الساحة في أحد الأيام من أجل نار المحيا في ليلة النصف من شعبان.

البهاليل والمجانين

يعيشون بينهم بسلام، وكأنهم جزء من المدينة الغريبة، تكاثرت ولاداتهم في الآونة الأخيرة، ومعظمهم أولاد لرجال تجاوزوا سن الستين وحتى السبعين من العمر، ولم يفكر أحد بأذيتهم ذات يوم؛ لكن بعض الأطفال كانوا يستثيرونه، وفي محاولة للدفاع عن أنفسهم يبدؤون بالسباب والشتائم وقذفهم الحجارة ولعن السماء.

حمادة الأحمر الرزين يستند بظهره على جدار المسجد طوال اليوم، يحادث أشخاصاً يراهم وحده، يتحدث بهدوء وهو يرفع يده مبدلاً صوته، وقد ينفعل لكنه سرعان مايستعيد هدوءه، لايكش الذبابة التي تقف على أرنبة أنفه، معطفه العسكري ممزق، يصمت عن الكلام ثم ينتفض محاوراً ذاته الأخرى بكلمات غير مفهومة، وضاح يجلس إلى جواره تارة ويقف أمامه تارة أخرى محاولاً الانصات والاستماع إليه، لكنَّ عباراته لم تكن مكتملة، وكأنما هناك محاوراً آخر يستمع وحده إليه ويجيبه، وعندما يجلس إلى جواره لايتأفف، يتابع حواره بكلمات متفرقة من النادر أن يكون لها معنى، وإذا أخرجه من حواره يتوقف، ويبتسم في وج هه وإذا ألحَّ عليه بالسؤال يجيب باقتضاب، ثم يعود إلى عالمه، عالم يعيشه ويراه وحده؛ وكأنه عالم مسحور. وحمادة لم يكن بالإمكان إثارته رغم عبث الأطفال حوله، فهو يتمتم بكلمات غير مفهومة بصوت عال ثم يعود ليجلس على رصيف المسجد مسنداً ظهره على الجدار، والنسيم الرطب المملح يداعب شعيرات ذقنه الحمراء.

وتوفيق الحداد ينادي كاز الكاز ثم يشتم زوجته، ويقوم بتمثيل ذبحها وطعنها مع قفزات في الهواء وصوته يلعلع يا خائنة. وعندما يلحق به الأطفال ويصرخون كاز كاز، تصل ثورته ذروتها، يطارد الأطفال وإذا أمسك

بأحد منهم يناله عقاب شديد. أما راشد العاقل الحكيم الصامت ، المتزن، فهو محب للعزلة ولقد أتته نوبة التمرد الصامت بعد أن كوَّن عائلةً وتجاوز الخمسين من العمر ، أما أحمد بري السريع فهو يمشي ركضاً طوال الوقت، جسده مندفع للأمام، كأنه مؤهب للسقوط على الأرض ، يركض في ذات المكان جيئة وذهاباً يقطع الساحة من الشمال إلى الجنوب ثم يعود ركضاً، وهو يتحدث بصوت جهوري ، يصب لعناته على العالمين. أحمد بري هذا ماهر في رمي الحجارة أمام عبث الأطفال. وعندما يصرخ أحد المارة كلمة «بري بري تيعا تع» تثور ثورته وتتساقط لعناته وحجارته على الناس.

وحامد كاسر أشجار الزنزلخت والذي تبدأ نوبته مع استحالة القمر إلى بدر، تستمر أياماً ثلاثة، يتوجه بعدها إلى الشرق بحثاً عن حبيبته الضائعة.

العم أحمد هو الرجل الوحيد في المدينة الذي اعتاد الوقوف معهم والتحدث إليهم، وكثيراً ماتوقف إلى جانب حمادة ليقدم له سيجارة يشعلها ثم يمد يده: خذ ياحمادة فيبتسم حمادة ثم تتحول ابتسامته إلى ضحكة يتجاوب معها أحمد بضحكة يقول بعدها: وما لذة العيش إلا ... يصمت، يهز رأسه ويسير مبتعداً.

رتل المجانين مع الأطفال المتخلفي العقول ساروا مواكباً الجنازة إلى المقبرة، يراقبون الناس بأعين حيادية، وقفوا قرب القبر وعندما سقط الجسد المكفن بالحفرة، نظر بعضهم إلى عيون الناس ووجوههم، نظرات لم يتمكن من قراءتها أحد.

جوبيتر فـي الساحة

أغرم جوبيتر بعُربة ابنة الملك أغينور، أتى على شكل ثور، واختطفها من شاطىء صور، حملها بحراً إلى الغرب، توجه قدموس أخوها معمر المدن بأمر من أبيه للبحث عنها، اصطحب أخويه ووالدته إلى بلاد الإغريق، قام ببناء المعابد وأخذ معه اللغة الأوغاريتيه المكتوبة.

تزوج قدموس هارموني ابنة أفروديت وأربيس.

ثم انتقل إلى الكثير من المدن والجزر اليونانية، يبحث عن أخته عُربة، ويبني المعابد، يزينها بالحروف الفينيقية.

وصار جوبيتر الثور يعبد مع الآلهة الفينيقية الثلاثة الكبرى .

في صبيحة ذ ات يوم حدث أمرٌ بقي يعيش هاجساً في داخله. ولقد ساهم في صنع أيامه المقبلة كما ساهم في رسم أفكاره وبنى بداية مختلفةً لمستقبله، ذلك اليوم جعله يرتبط بالمدينة بكل ما فيها ، من تاريخ وفناتازيا وأساطير وحتى الخرافات والقصص الشعبية الغريبة والعصية على التصديق.

قبو معد لاستقبال الدواب، زوج من الثيران وحمار في القبو، والده يسأله أن يُعلِّق لها الطعام، القبو مظلم، الرؤية تتطابق رويداً رويداً مع الظلمة، يشعل نواسة الكاز المعلقة في إحدى حفر الجدار.

الرطوبة المنبعثة من القبو مختلطة بروائح روث البقر؛ تجعل للمكان رائحة غريبة وستغدو تلك الرائحة أليفة مع كثرة دخوله إلى ذلك المكان لسنوات قادمة.

في الصيف يستشعر الرطوبة والبرودة اللطيفة التي تعاند حر الصيف. يتأمل زوج الثيران القوية الهاجعة تجتر طعامها.

أما الحمار فيجفل من اقتحام قبوه، قبل التأكد من أن الداخل هو أحد معارفه، ثم يهدأ م حركاً رأسه مدوراً أذنيه ، ثم مطرقاً وملوحاً بذيله، وصار بعدها يستقبله بالترحاب، يرفع رأسه ناهقاً باشا، يتساءل وضاح : أتراه يفعل ذلك مرحباً به أم بوجبة الشعير والتبن؟.

جدران القبو مبنية من العقد ومغطاة بغبار الأزمنة، دخان النواسة يرتفع نحو الأعلى راقصاً، نافذةٌ مضيئة من خارج القبو تدخل   حزمة من أشعة الشمس، تتراقص فيها ذرات الغبار، يُمرر يديه من خلال شعاع   الضوء، تضطرب ذرات الغبار، وتهرب من اليدين اللتين عكر   ت مسارها، الشمس تضيء بقعةً في الجدار،   يضع يده في طريقها حتى تلامس   ه يتأمل أصابعه، يسندها إلى الحجر التي تسقط عليها بقعة الضياء.

يمسح الحجر الذي بدا غريباً ضمن حجارة القبو، تمتلىء يده بالغبار المسود، يلتقط محرمة قماش من جيبه، يمسح يديه بها، ثم يمسح الحجر الغريب مراراً، تظهر حروف على الحجر، يرتجف قلبه. يتأمل الحر وف. يا ألله ما هذا! إنها لاتشبه حروف اللغة العربية ولا الإنكليزية التي تعلَّم بعضاً منها.

عمد إلى تنظيف الحجر مذهولاً، يتبادر إلى ذهنه خاطرالتوجه بالأسئلة لابن عمه السوري القومي والمهتم بتاريخ سوريا، أبعد الفكرة وشعر بأنَ هذا الاكتشاف ملك له. تساءل ثانية ترى ماذا خلف الحجرة. لوهلة قال لابد وأن الفانوس السحري يرقد تحت الحجر، ضحك من فكرته، وغرق في التفكير.ماهو السر؟

بحث عن إسفين حجري ، عن قطعة حديد عن سكين ليحفر حول الحجر.

التقط عوداً مكسوراً نظف حوله.

بعض المناطق صلبة وبعضها هشّ؛ لكن الدخول حول الحجر بدأ أمراً في غاية الصعوبة، وما اعتقده بداية فراغاً بين حجرين بدا صعب الاختراق، حاول الدخول إلى الأعمق في اليوم التالي، مصطحباً سكيناً من مطبخ المنزل، أخفاها خلسة داخل محفظة الدراسة.

أخذ الفراغ بين الحجرين المتجاورين يضيق حتى التصقا. وعرف أن الحجر المحصور بين أربعة حجارة لا يمكن اقتلاعه.

انتابته الحيرة وشغله سر الكتابة!

مالذي يقبع خلف الحجر؟

أتراه موقع الكنز المكتوب على الصخرة في مدخل المدينة؟

إنها أكبر حجارة القبو!

وعلى أكبر حجارة بوابة الساحة خارج القبو؛ كتب لكن باللغة العربية كنز في الساحة في مدينة توروزا.

أتراه عبث أحد الرجال القدامى تركه ليضحك به على الناس.

أم أنها حقيقة اكتشفها ذات يوم ثم أخفاها عن الناس؟....

بعد سنوات طويلة عرف أن المدينة غزيت مراراً وتناوب عل يها أقوام وشعوب مختلفة، بعض سكانها عمدوا إلى طمر الأشياء الثمنية التي لا يمكن أن يحملوها على أمل العودة. وأكثرهم غادر ولم يعد.

مدينة استعصت على صلاح الدين الذي تركها بعد حصار طويل، وبعد مائة عام اتى قلاوون ليجلى عنها الإفرنجة تاركين نفائسهم مطمورة فيها.

لكن الأمر بعد الحجر لم يعنِ لوضاح في ذلك الحين أكثر من سؤ ال ألقي في وجهي بغتة

ماذا تعني تلك الكلمات؟...

في اليوم التالي اصطحب بيل كشاف، وأخذ ينقب جوانب القبو، زواياه وجدرانه، بحثاً عن إشارة أو دلالة، فتشه شبراً شبراً بلهفة كبيرة، تلك اللهفة ازدادت مع الأيام والشهور، ولم تخبو مع مرور السنين.

عدم وصوله لأية نتيجة لم يشعر هباليأس، اعتاد ترك الأمر أياماً، ثم العودة يقوده عناد مراهق، ورغبة في اكتشاف المجهول ، رغبة في الدخول إلى الماضي، وربما لاكتشاف كنز أو مدينة مخبأة خلف الجدار الذي يشكل الحجر المكتوب جزءاً منه.

الثور الكبير في الزاوية، وهو ثور أليف لمعارفه، لكنه شرس إذا ما أفلت من عقاله. حذَّره والده منه، فهو كثير الحركة والصخب إذا ما جاع، ولقد تمكن من قطع قياده ذات مرة والإفلات خارج القبو. ضجت ساحة المدينة وخلت من الرجال الذين التجأوا إلى مخازنهم.

الفلاح الذي يقوده بالفلاحة، أتى وهو على معرفة جيدة به، علا صوته «هي ها» ثم تغيرت لهجته نحو الهدوء هـ هـه، وصار كمن يهلل أو يهدهد طفلاً.

اقترب منه حذراً لكنَّه غير خائف، بنظرات ثابتة وجرأة، وحديث متواصل هادىء يطلب منه السكينة، وكأنما يحادث طفلاً صغيراً، إلى أن أمسكه من عنقه، هدأ الثور ومضى معه كطفل أذعن لرغبة أمه.

في الزاوية حيث اعتاد الثور الهجوع، ظهرت حفرة أسفل الجدار الشرقي بحجم لا يتجاوز قبضة اليد، تسرب منها هواء رطب، أحس وضاح معها

بالفضول والإثارة. ورغم ألفة المكان، فهو لم يشعر بأي شيء عفوي فيه، ودخوله إليه بقي كمن يدخل إلى مكان محاط بالأسرار، إحساس بأنه في حضرة أسرار التاريخ، لايعكره سوى حركة الثيران أو الحمار. حفظ كل حجر وزاوية، وعدد حجارة القبو، وعقد السقف وكيفية تلامس تلك الحجارة ، والإطار الذي ازدانت به الجدران، والتاج الذي علا أعمدة المكان. أربعة أعمدة وأربعة تيجان رخامية في قبو معد لزوج من الثيران وحمار؛ وطفل يكبر على أبواب المراهقة وهو يعلف لها. بين الحين والآخر.

في السرير المعد للفلاح الذي يحرث على الثيران، اعتاد الاستلقاء إذا ماهده التعب، وكثيراً ماغفا وهو يحلم بسندريلا وشهرذاد وعلاء الدين.

النوم في القبو المظلم عميق، يستيقظ بعده محمر العينين مشبعٌ، بروائح القبو وعبقه.

عندما أخذ يوسع الحفرة حذراً من الفلاح أو من اكتشاف المكان ، تزايد إحساسه بأن هذا المكان يخصه، وأنه على أبواب اكتشاف سر من أسراره، تمعَّن في الأمر ليرى ما خلف الجدار.

قاعة الفرسان التي تعلو القبو مسكونة في الأعلى، ومساحتها كبيرة طولها حوالي الخمسين متراً وعرضها أكثر من عشرة أمتار.

قبوهم الوحيد أسفل قاعة الفرسان لا يزيد عن خمسة أمتار طولاً ، وعرضاً خمسة أخرى، تساءل أين هي باقي المساحة، تراءت في مخيلته بغتةً مساحة كبيرة مجاورة للقبو، مختبئة عن الناس.

تمتم في نفسه: أسفل القلعة وخلف هذا القبو تماماً، مستغرقاً في التفكير فرحاً لاكتشافه ووجلاً منه في آن. «المنفذ الوحيد هو هذه الحفرة».

في الأيام التالية ابتدأ بحفرها ثم اخفاء ما يقوم به.

ولقد ساعده على ذلك أن والده باع ثوري البقر ، بعد أن صارت حراثة الأرض تتم بالجرَّار، ولم يبقَ سوى الحمار الذي تُرك من أجل حمولة محصول الزيتون.

عمد في الأيام التالية إلى دخول القبو خلسة، وإلى توسيع الحفرة إلى أن تمكن من زحزحة الحجر، مصطحباً معه مصباحاً يدوياً، تسربت رطوبة شديدة باردة لفحت وج هه، ونفذت إلى أنفه، وبعد إزاحة الحجر تمكن من العبور إلى الداخل.

العتمة تعم المكان، أشد ظلمة من القبو ، مع ضوء المصباح اليدوي الشحيح، والنور ال ذي يقتحم بعض النوافذ العليا، انكشفت أمامه قاعة كبيرة، انتابه إحساس بالرهبة من الاكتشاف الجديد، الدهشة والمباغتة من المجهول، قشعريرة تعتري الجسد، القاعة كبيرة ومرتفعة تتضح تفاصيلها أما عينيه مع اعتياده على الضوء الضعيف، محراب حجري يتصدر المكان، السقف أقواس متعانقة، وعلى الجدران شرفات صغيرة حجرية تعلوها شمعدانات برونزية، وأسرج فخارية، وخفافيش تطير في العتمة.

أدرك أن المنطقة مسكونة بالخفافيش ، لعلَّها ذات الخفافيش التي يراها ليلاً تخرج من النوافذ العليا لتمرح في سماء المدينة.

أحسَّ بالخشية وهو يستكشف المكان، نقوش على الجدران ملأى بالغبار، أعمدة رخامية ، زخارف دائرية، حروف إغريقية وحروف شبيهة بها لكنها ليست ذات الحروف، اقترب متأملاً المكان وقال لنفسه: في مرة قادمة سأنقل هذه الحروف، آنية فخارية وزجاجية خضراء وملونة.

إحساس بالتيه، عيناه تتنقلان بين الجدران إلى أن وصل المحراب، عيناه اعتادتا أكثر ظلمة المكان.

رائحة الرطوبة تزداد نفوذية، توقف مندهشاً أمام رأس ثور حجري حسبه يحدق في وجهه، عيناه في عينيه، توجسٌ رهبة، على الجدار نحت لفتاه، وأمامه سفينة، ونقوشٌ أعلى جدار المحراب.

أمسك برأس الثور كان حراً بحجم رأس خروف، تصبب عرقاً، تلفَّت حوله ناسياً أنه وحده في المكان الذي ربما لم يدخله أحد، منذ مئات السنين، عندما تركه سكان المدينة ورحلوا إلى البحر عبر الباب السري للمدينة.

سلط الضوء عليه، الغبار والعناكب تملأ تجاويفه، مشى يحمله عدة خطوات ثم أعاده إلى مكانه، وهو يتذكر قصة اللعنة لمن يعبثون بالمقدسات.

في تلك المرة خرج وحيداً، لكن رأسه بقي في الداخل، في الليل تنازعته الأفكار، ابتعد عن عالمه، سبح في الماضي، رأى أماكن تركها ساكنوها، تركوا وراءهم حياة بكل ما يمكن أن تحمله؛ ذكريات فرحة ومؤلمة، آمال، وآلام، تصو ر رحيلهم ، وهم موقنون بأنهم سيرجعون إلى ديارهم، إلى آلهتهم ومعابدهم وحياتهم، لكن العودة بقيت حلماً.

أتراه عاد من ذلك الماضي البعيد؟

لكن هل يعود الإنسان من الماضي؟

ضحك على أسئلته، وتمنى لو أنَّ الناس الذين يرحلون عن ديارهم وأشيائهم يعودون إليها.

في اليوم التالي ذهب إلى ابن عمه، فلقد أصبح الأمر ثقيلاً عليه، طلب منه أن يقرأ شيئاً عن الفينيقيين، وسأله عن الثور ومكانته، وقص على وضاح حكاية جوبيتر وعُربة وقدموس، ثم أعطاه كتاباً عن الفينيقيين، وكان ذلك أول دخولٍ له إلى عالم التاريخ القديم ، حيث بدأت الرموز والصور والأشكال، تأخذ شكلاً مختلفاً لحياة ملأى بالحكايات القديمة، يتسق فيها الواقع مع الخيال.

وفي اليوم التالي، أخذ كيساً معه، دخل بجرأة إلى مكانه الخفي، حمل رأس الثور ونسي اللعنة القدسية التي تحل بكل من يعبث بالمقدسات البشرية.

آخر الأزمنة – أول العشق

سيدة

صحا باكراً على غير عادته، اليوم تأتي سيدة لزيارتهم، سيدة تكبره بثلاث سنوات أول مرة رآها، وثب قلبه، هدأ عن الحركة، أصيب بتوهج في الوجه لم يتعرفه من قبل.

عينان واسعتان، عنق عاجي وشعر أشقر، ملامح أتعبَ الفنان الكونيَّ نحتها.

أتراها آلهة أغريقية هربت من جبال الأولمب.

حضر فيلم أوديسيوس منذ فترة وجيزة.

إنها أجمل من بنيلوب زوجة أوديسيوس، هو في الثالثة عشرة؛ لكنها امرأة مكتملة النضج. تحسس شعرات وجهه الناعمة، الزغب يعلو وجنتيه، هُرع إلى المرآة. استخدم أدوات حلاقة والده. أصاب وجهه بجروح عديدة، حبات الشباب المتناثرة على وجهه وأنفه ابتدأ بعصرها هي ستأتي لزيارتهم اليوم، ترى كيف سيبدو أمامها؟

غسل وجهه جيداً، سرَّح شعره يمنة ويسرة، وضع الصابون عليه، رفعه للأعلى؛ لكن شكله لم يعجبه، أعاده إلى تسريحته الأولى.

فتح الخزانة جرب قمصانهُ كافة، اللون الأزرق هو اللون الذي رآها تلبسه.

لا شك أنها تحب هذا اللون، اختار القميص الأزرق. وضع عطراً تقليداً لوالدته، ابتسم أمام المرآة، فتح فمه كشر عن أسنانه، حاول بطرق عديدة، اختيار بسمة ملائمة، زم شفتيه، انحرفتا نحو اليمين، عينان تخرقان المرآة، رأى عينيها تراقبان وجهه وحركاته.

أحلام اليقظة تغزو مخيلته، يراها معه إلى جواره، يقطنان في منزل واحد، تصنع له قهوة الصباح، تسخن الماء لحلاقة ذقنه.

الزمن يتباطأ وهو يرسم عالماً آخر، زمناً قادماً يعيشانه معاً.

في المدينة منزلها يطل على البحر، لا يبعد عن بيته سوى عشرات الأمتار.

يتساءل «أتراها تشعر بي»؟.

ماريا التي تكبره بسنوات سمعها ذات يوم تقول لها: إنه لا يترك المنزل عندما يعرف بقدومك، ثم أتبعت كلماتها بضحكة خبيثة.

بعد ساعات عبر به رفاقه، اعتذر منهم:

- لا لا أشعر بالراحة سأبقى في المنزل.

قال له صوته الآخر «اليوم يومك ياوضاح لكن انتبه لاتدعها تقيم في داخلك معي».

- ابتسم وضاح أين ستقيم إذن انتبه أنت لا تعابثها.

بعد قليل قُرع الباب، قرع قلبه بقوة، فتحت ماريا، صرت مفاصل الباب، سمع صوت سيدة عن بعد، تسمرت قدماه في المكان، جرَّ نفسه لاستقبالها، حرضه الصوت «تقدم لاتخجل».

كيف الحال يا وضاح؟

توقف لسانه في حلقه أشاح برأسه. دم يتصاعد من وجنتيه، امتدت يدها مصافحة، تلامست راحة يده بأصابعها.

- مابالك يا وضاح حرارتك مرتفعة؟

ابتسمت ماريا

- كيف دراستك هذه الأيام؟.

لم يتحرك لسانه ازداد جفاف فمه.

قال له الآخر: «تحدث ياوضاح» لكنَّ الكلمات لم تسعفه.

قالت ماريا: إنّه مجتهد لكنه كثير الشرود هذه الأيام. يجلس في الغرفة منفرداً، لايقابل أحداً، يبدو أن هناك مودة خاصة تجاهك لذلك أتى مسلماً. أتبعت كلماتها غامزة.

الأرض تنشق تبتلعه، كاد يغيب عن المحيط، أرسل نظرة عتب إلى ماريا التي قابلتها بابتسامة ماكرة.

تأتي صورة زهرة العارية، يطرد صورتها، إنه لايفكر بسيدة بذات الطريقة»، إنها مختلفة.

يقول الصوت: «لكن لماذا أحببت من تكبرك بثلاث سنوات؟ يتابع، «أخبرك الحقيقة إنها حقاً سيدة وجميلة».

تتجه مخيلته نحو السماء عاتباً لماذ لم يولد قبلها.

تنفرد ماريا بها في غرفة مجاورة، الباب مفتوح، يسمع همسهما». تتضاحكان: إنه قبطان يملك باخرة، تقدَّم إلى خطبتها.

ياألله، ماذا تقول سيدة! تمتد أذناه إلى داخل الغرفة يتابع همسهما:

«لا لا أدري يظهر أن والدي أعطى كلمته، وأخوتي يعرفونه جيداً، إنه رجل ثري يوم الخميس سيأتون لقراءة الفاتحة» باخرته في الطريق، ستصل بعد عدة أيام.

سيدة تدرك تعلق وضاح بها، أخوها محمود في مثل سنه، ومنذ عرفته رأت تعلق عينيه بها، وعندما تزورهم في المنزل يقبع في الزاوية. يسترق النظرات، وجنتاه محترقتان. وضاح يعاتبها، يجلس بخشوع كمن يصلي في محراب:

جاءت لتمكث لحظات
يدها لامست قلبي
عذوبتها فاضت أنهراً
قلبي رقص طرباً

لكن الحزن ما فتئ يجتاحني.

يرجو الله أن تكون له وحده، يتساءل «أتراها تحس بي وهل تدرك مدى إعجابي بها»؟. حاول أكثر من مرة أن يتحدث أمام والدته لكنه لم يتجرأ. ماذا ستقول له؟

صراخ حزين ينبع من داخله وكأنه يسمع جواب أمه:

«أنت طفل وأمامك سنوات من الدراسة، ومن سيعيلك؟ في مثل سنك لا يفكر الشاب بالفتيات بل بالدراسة فقط».

في حواره الذاتي يتجه إلى المقدس، دعواته العميقة يرفعها إليه، وفي ساعات شروده عن العالم، يغرق في عينيها وشعرها، ثم ترحل نظراته نحو البعيد إلى السماء مرسلاً دعواته عبر النافذة إلى الله.

سمع صوتاً عذباً أيقظه من شروده.

- وضاح

لم يصدق بداية أنها تناديه انتبه بغتة لعينيها العسليتين الواسعتين تشع منهما بسمة رضى.

- وضاح

يذوب اسمه في أذنيه، لم يسمعه بمثل هذه العذوبة من قبل.

يلتفت إليها وكعادته لم يستطع أن يتلفظ أمامها بكلمة نعم.

أرسل نظرات متوسلة إلى عينيها. قالت عيناه:

«أرجوكِ لا لا تقبلي، انتظري، أعدك سأدرس، سأتعلم سأكون أفضل من صاحب الباخرة».

كررت وضاح، تجرأ على التحديق في عينيها قرأ رسائل غائمة مزيج من المودة والمحبة والألم، طار بها بعيداً إلى أطراف الكون، صرخ في داخله توقفي لأكبر، نظرة رضى رقيقة وابتسامة مبتسرة على الشفتين:

وضاح، فاتن ابنة أختي عمرها سبع سنوات، إنها تشبهني كثيراَ، أتمنى أن تكون خطيبتك في المستقبل.

أحس بنصل السكين يدخل عميقاً في جرحه يوسعه، دقات قلبه تتسارع ثم تتوقف فجأة، لم يجب ولم يقو على الحركة.

لملم جسده وخرج مسرعاً إلى غرفته، أحسّ بقلبه يهوي، عيناه غامتا بالدموع.

صوت راديو ينبعث عن بعد:

يا ظالمني.

نغمات الموسيقى تتداخل مع صور عتيقة لعمه أحمد، يلقي نظره من النافذة، الهواء يرتعش وصوت الموسيقى يثقب أذنيه، العالم الكبير يصغر. يرتسم وجهها على الغيمة القادمة من الغرب عيناها الواسعتان أنفها فمها.

حلم الاتحاد الأبدي يبتعد، خيوط من النور تتسلل من قلب الغيوم.

يتساءل في داخله: «لماذا لا يكون الحب منعتقاً من قوانين الزمان والمكان وفارق السن؟»

يحس بآلامه تنتشر أمواجاً في السموات البعيدة حزن صامت ممتلىء بالمحبة، سيدة تبتعد وقلبه يعمه الخواء.

يدعو إلهه وآلهة المعابد وكافة الآلهة للوقوف إلى جانبه، إحساسه بالخيبة يتنامى. يحسب أن رحلته شارفت على الانتهاء، يصحو الآخر في داخله يناديه بقوة:

«لا تدع حبك الأول يضعفك، رحلتك مازالت في بداياتها لماذا لا تنظر إلى الأمام.

* * * * *

في المساء بدا القمر محاطاً بغيوم سود، سرح صوب منزلها، عبر تحت الشرفة البحرية آملاً أن يرى خيالاً لها، استشعر بداية هبوب الرياح، التفت

إلى السماء والبحر الذي بدا على حواف ثورة عاتية، توجه بالدعاء إلى إله السماء والبحر.

الغيوم في الأفق الغربي تتزايد سرعتها، منذرة باقتراب وقوع عاصفة، تنين يتراءى في الأفق البعيد، قاعدته في البحر وذروته في السماء.

أصوات راعدة، وصواعق منذرة، هُرع إلى منزله، فتح المذياع آملاً أن يسمع نبأً ما عن باخرة يقودها القبطان باسل خطيب سيدة.

صخرة الخلقين



رواية

رواية

صخرة الخلقين

محمد الحاج صالح